رواية

افترقنا حين التقينا

أحمد زاهر حوّا

BOOKSITE

هـذه النسـخة الإلكترونيـة مـن الكتـاب يحـق للقـارئ قراءتهـا كملـف الكترونـي فقـط ولا يُسـمح بطباعتها ورقيا لأي سبب كان

حقـوق الطبـع والنشـر والتوزيـع جميعهـا محفوظـة لدار النشر

وإن أردتـم النسـخة الورقيـة الأصليـة يمكنكـم تأمينهـا من دار النشر من خلال التواصل معهم مباشرة

نتمنى لكم قراء ممتعة

الكتــاب:افترقنا حين التقينا
رواية: أحمد زاهر حوى
الطبعة الأولى ايـلول -٢٠٢٢
الترقيم الدولي ISBN: 978-605-71113-4-0

الناشر
دار بوكسايت للطباعة و النشر و التوزيع - تركيا
+905372275466 / +905510670240

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

جميع الحقوق محفوظة ©

أحمد زاهر حوا

افترقنا حينَ التقينا

رواية

الإهداء

إلى جدَّتي التي ذهب سرُّها إلى الله، و أنا أخطُّ هذه الرِّواية بيدي التي اشتاقت إلى يديها، وقلَّبت أحداثها وأحداث حياتي كلّها، وأسقطت الدُّنيا من عينيّ، وأدركت بأنَّ الحياة ليست سوى سرُّوجود الإنسان، فإن أدرك مبتغاه أدرك حقيقة وجوده. ولقد ضاق الكون بوسعه عليَّ، فهنيئاً للسَّماء بروحك الطَّاهرة، وأسفي عليَّ لأنّي سأقضي حياتي مغترباً عنك، إلى أن أحقِّق ما سعيت لأجله و أكمل رسالتي.

رحمك الله يا مؤنستي يا ضوء عيني وبصيرتي نحو قبلتي، ودعائي عند سجودي ...

عزيزي القارئ أريد إخبارك بشيءٍ هامٍ قبل السَّرد:

أنا شابٌ مثلك في العشرينات، وغداً وفي ومضة عينٍ سأكون في السَّبعين من العمر....ستكون التَّجاعيد تأكل وجهي الجميل، لذلك لا أملك في هذه الدُّنيا سوى الصِّدق والإخلاص لهذا القلم الذي بين يدي، لهذا أردت أن أكون الصَّفحات التي تقرأها وتبكيك ...سأكون هذا الورق الذي بعثت به الرُّوح، ويتحرَّك بين يديك ,لذلك كنْ شجاعاً بما فيه الكفاية، وأخبرْ تلك الصَّفحات كم مرَّةً مزَّقت صوراً قد أبكتك، وكم مرَّةً لامست جبهتك سجادة الصَّلاة. وكنْ على يقينٍ بأنَّ الهروب من الذَّاكرة لا يعالجه الغضب، ولأنِّي سأكتب هذا الكتاب بصدقٍ، وكأنِّي سأموت غداً ستكون أنت بطل روايتي، وستسأل بعد ما تنهيها نفس السُّؤال الذي بنيت عليه الرِّواية ...ما هو القدر...؟ ولأنِّي شابٌ مثلك فأنا أعرف خطاياك ومعاصيك التي ستكبر معك، وسأخبرك كيف مضى هذا العمر وكيف بدأت التَّجاعيد الحقيقيَّة تظهر علي، ولأنَّك لا تفهم ما أقول فأنا بقيت شاباً إلى البارحة، أمَّا اليوم فأنا عجوزٌ منهكٌ، والتَّجاعيد تأكل جبهتي وأكتب هذا الكتاب بنظرٍ ضعيفٍ، لأنِّي لم أعد أشاهدها بين جدران هذا البيت القديم .....

الجزء الأوَّل

سيمفونيَّة دمشق

في خضم الحرب، وفي رعشة أرض الشَّام، وقرب الجامع الأمويّ، كان صوت صفير الهواء يعتلي السَّماء، يبحر بعيداً مع عينيها السَّوداوين، أراها تبتعد إلى البعيد ..وقَفتْ في آخر الشَّارع الخالي من زحام النَّاس التَّائهين وسط دمشق، التفتتْ برأسها إليّ لتنظر نظرة الوداع، وكأنَّها وترُ العود الحزين... إلى اللقاء يا وجعاً أحمله في صدري، إلى الآن ..عينها لم تدمعْ بل كانت تتكلَّم أو بالأصحِّ كانت تناجي الله أن يهدِّئ ما في صدرها من ألمٍ ..ما أقسى ذلك العتاب، كان الثَّلج يتساقط من فوقنا والسَّماء مختنقةٌ، وكأنَّها لوحةٌ زيتيَّةٌ رسمها رجلٌ أعمى، صوَّر السَّماء من وحي خياله ...فأبصرَ جمال الكون لأوَّل مرَّةٍ بفرشاته...هطل الثَّلج كثيراً من بعدك ...هطلت عيناي أيضاً يا لوريتا ..هطل الكون كلُّه من بين أصابعي لقد تسرَّب من عينيَّ ..لم يعد يعني لي شيئاً، كنت أعلم أنَّك ذاهبةٌ بلا عودةٍ ..كنت أراك حمامةً فوق الجامع الأمويّ تلقي عليَّ السَّلام وتطير وتبتعد، تهاجر بعيداً عن صوت القذيفة، وعن صرخة الأم المريضة.. وعن صرخة أرض الشَّام المكتومة ...

كنتِ صوت فيروز التي خدشت قلبي ذات يومٍ ...كنتِ وجعي وقهري لأعوامٍ وما زلتي إلى الآن ...كنتِ خندقي المشؤوم والليالي الباردة وصوت الرَّصاص الذي ملأ أذني لأصل إليك ...ها أنتِ تسيرين ويبتعد ظلُّك إلى الأبد، إلى أن اختفيت عن عيني، ولم أعد أرى منك سوى شبحاً أبيضَ مثل المعطف الذي ترتدينه ...إلى أين يا سيمفونيَّة دمشق؟ ولماذا؟ تراني أختنق يا لوريتا ...ترى أوجاعي لا تقيسها بأرض الشَّام ...تراني أريد الصُّراخ لكن يدك كانت على فمي تكتم أنفاسي المحترقة ..يدك الباردة البعيدة عن واقعي، يدك التي استنشقت عطرها ذات يومٍ...ساقتني قدماي إلى المنفى البعيد...كان قريباً واليوم وقبل بضعة دقائق أصبح بعيداً جداً، وأنا أصبحت الغريب الذي لم تلتقيه يوماً ...أصبحت جرس الكنيسة المنسيّ، وأذان المسجد المتعب من قلَّة المصلين، أصبحت

سيمفونيَّة الشتاء الباردة التي لم تدفئ جريح الحرب يوماً ...أصبحت من دونك يا لوريتا جليس خيبتي مع ذكرى تنحر القلب إذ تاه عنك.

مثل الصَّلاة أنتِ تشعرني بالذَّنب إذا لم أستقم ...

في شتاء دمشق

2015/حزيران/8

السَّاعة الرَّابعة عصراً

جالساً في المقهى في منطقة القيمريَّة في قهوة عالبال، تلك القهوة التي تشمُّ منها رائحة دمشق العتيقة، رائحة التَّنور ورائحة القهوة عند الصَّباح، وصوت فيروز ورائحة شجرة العريش التي تسابق بعضها لترمي وجعها على الحيطان القديمة، في قهوةٍ يحطُّ على سقفها حمامٌ، يهرب من صوت القذائف في الجوار.... أشرب قهوتي التي اعتدت أن أشربها هنا كلَّ يومٍ وأرسم حبات المطر وهي تتساقط أمامي، أتابعها بعينيَّ السَّوداوين وألتقطها على الورق، ربَّما الشُّرود قد يأكل عقلي يوماً وأصبح شخصاً لا مبالياً، لكن كلَّ شيءٍ قد تغيَّر من بعد هذه الكلمات...

1

أتأمَّل من يجلس بجواري وصوت الحبِّ الفيروزي يصدح في أرجاء الحيِّ، فبائع السَّلاسل الخشبيَّة الذي يأتي إليه كلُّ عشاق دمشق لينحتوا أحرفهم على الخشب، يأتون إليه من كلِّ زقاقٍ، فهو وحده يعرف كم قصة حبٍّ مرَّت على هذه المدينة القديمة.

وفي المقهى رجلان كبارٌ في السِّنِّ، يلعبان الطاولة ويتشاركان أوجاعهما التي لا تنتهي، جلست في الزَّاوية قرب العريشة، وعلى يميني عاشقان يتناولان كلمات الحبِّ الرَّقيقة، فيطرب مسامعها بأشعار نزار قباني، ومن يدري ما نهاية هذه القصَّة، من يدري كم وجعٍ سيسكن قلبهما، وماذا سيخرج الوجع منهما ...هل سيكون كاتباً؟ هل سيكتب عن وجعه ليلاً؟ وهل سيكبر دونها يوماً ... أرسم ثمَّ أشرد أرسم ثمَّ أشرد وهكذا أنا على أيَّة حالٍ، لكن ماذا عن فطرة القلب التي تأتي دون حسبانٍ ...كيف يتغيَّر الإنسانُ في لحظةٍ لم يعد يملك نفسه، ولا صوته ولا حتَّى يديه فكلُّ شيءٍ به لم يعد له.

2

دخلت فتاةٌ في مطلع العشرين، بيضاء البشرة وشعرها القصير الأسود الدَّاكن بليله تعدَّى كتفيها بقليلٍ، وعيناها السَّوداوان تفطر القلب بما فيه من شغفٍ، لوهلةٍ ارتعش صدري وجسدي توقَّفت كلُّ خلاياه ...عيناي هي التي عشقت تلك الملامح البيضاء ...نمشٌ خفيفٌ تطاير في وجهها، وتحت عينيها وابتسامةٌ خدشت قلبي يومها...جلست أمامي قرب شقفٍ من الورود، وأمامها فتاةٌ سمراء البشرة، يبدو عليها القرب من تلك الجميلة...ضحكتها تملي عليّ ذكر الله في هذا الجمال ...خلعت معطفها الصُّوفي، وطلبت القهوة مثلي حاولت إكمال الرَّسمة لكنَّ ريشتي تخونني، وعيوني تتَّجه قسراً إلى تلك الجميلة فلم أدرك أن يدي رمت تلك الرَّسمة، وأخذت ترسم تلك الملاك الدِّمشقي، أنظرُ إليها ثمَّ أرسم وأعيد الكرَّة، حتَّى تلاقت أعيننا وسط الضَّوضاء الهادئة.

رمتني بسهمٍ لا نجاةَ منه، عيناها الذبَّاحتان توقف الزَّمان عن المضيّ، وتشعل النَّار في صدري، أخذت أرسم عينيها أوَّلاً، أرسمها بشغفٍ بدفءٍ وبذكر الله في كلِّ خطٍّ، لا أحد غيرها في هذا المكان لا أحد، لا أحد يقطع شرود عيني فيها لا أحد هنا سواي، مضت ساعةٌ ونصف وكأنَّ العمر لم يعد يمضي، وكأنَّ دمشق في صباها، رغم الحرب القاسية.

انتهيت من رسمها نهضت عن الكرسي وتقدَّمت نحوها ببطءٍ حابساً أنفاسي وضعت تلك الرَّسمة على طاولتها، وذهبت بدون أن أتكلَّم حرفاً واحداً فقط نظرةً أخيرةً في عينيها، ومضيت مبتعداً عن المقهى ذاهباً إلى منزلي، قدماي ترفضان المسير، لا تريدان المضي وكأن قلبي من يأمرهما بالوقوف، وعيناي ليستا لي بل لها، و أنا لم أكنْ لي أساساً في تلك اللحظة.

3

ركبت الحافلة، ولحسن حظِّي كانت فارغةً تقريباً، عدت إلى التَّأمُّل من شباكها أراقب أطفالاً تركض تحت المطر، وعجوزاً يستند على العكاز القديم وعيناه منطبقتان قد غطَّتهما التَّجاعيد، و أناسٌ بلا ملامح تركض مسرعةً، و يا ترى ماذا يجنون من هذا الرَّكض؟ الدُّنيا الزَّائلة! لا تركض يا طفلي، لا لا تعتد على هذا ربَّما ستفقد كلَّ شيءٍ إن سابقت الزَّمن، ربَّما تساقطت مع سقوط المطر فتكون مثلها تماماً، كأنَّك لم تكن...ستسرقك الحياة عن الأحباب، فلا تركض وتناسهم لأنَّ الموت أسرع من أن ينتظر، ولأنَّه لا ينتظر أحداً فلا تسابقه.

دخلت إلى البيت الذي استأجرناه منذ سنتين، بيتٌ له طابعٌ دمشقيٌّ، حيث الأزهار تملأ الشُّرفة، والأثاث المتواضع مبعثرٌ في أرجاء المنزل، كان أبي شيخ مسجد النُّور، يجلس قرب أمِّي يشاهدان مسلسلاً مصريّاً، قديماً ربَّما يلعنان هذا العصر المليء بالعيوب، يتمنَّيان لو تُعادُ أيَّام الزَّمنِ الجميلِ، كما سمَّاه أشقاؤنا المصريون. طرقت باب الغرفة ألقيت السَّلام ودخلت، التفت إليَّ أبي وسألني:

- كيف حالك يا يوسف؟
- بخير يا أبي أين فاطمة؟
- في غرفتها تقرأ القرآن.
- الله يتقبَّل.
- هل أنت جائع يا بني؟
- لا يا أمِّي شكراً أنا متعبٌ جدّاً سأنام قليلاً.

أمال أبي برأسه إليَّ وقال:

- هل أنت بخير يا بني؟

- أجل يا أبي لا تقلق.

- كيف كان عملك في المستشفى؟

- كالعادة الموت يتجوَّل في غرفها.

هزَّ رأسه بأسفٍ قائلاً: كلُّ نفسٍ ذائقة الموت اعملْ خيراً لتحيا ذكراك يا يوسف، اقتربت منه وقبَّلت رأسه ويديه، ومضيت إلى غرفتي لأرتمي على السَّرير، وأغطُّ في نومٍ عميقٍ.

هل كان قدراً؟

لوريتا

أنا لوريتا طالبةٌ جامعيَّةٌ في جامعة دمشق، أدرس علم النَّفس أشقّ طريقي الدِّراسيّ بتفوُّقٍ، وعلى أيَّة حالٍ لم يبقَ الكثير سأتخرَّج بعد سنتين، أمَّا عن أمّي فهي ربة منزلٍ في الأربعينات من العمر، و أبي قد بلغ سنَّ الخمسين وهو قسيس كنيسة يوحنا.

اقترحت ابنة عمي جوليا أن نذهب إلى المقهى لكي نتحدث في أمور زفافها، فهي بعد فترةٍ قصيرةٍ ستتزوج من صديقنا ألبير، وهو مهندسٌ يبلغ من الحسن ما بلغه ملوك الجمال، عندما ذهبنا إلى هناك وطلبت مشروبي المفضَّل القهوة طبعاً، فأغلب الكتَّاب يشربون القهوة هذا مشروبنا المفضَّل، لكن كلّما ضحكت رأيت شاباً في أواخر العشرين من عمره ينظر إليَّ، ومن ثمَّ يرسم على ورقةٍ كبيرةٍ ولكن في مجال دراستي الذي كنت مولعةً فيه، وفي فهم الشَّخصيَّات، كان يستلهم شيئاً منّي، ولكنّي لم أهتم لأمره فلربَّما أشبه فتاةً كان يحبُّها أو ما شابه ذلك، لكن بعد ساعتين تقريباً نهض من مكانه و اقترب من طاولتنا، ووضع صورةً أمامي، ونظر في عينيَّ لوهلةٍ وعلى وجهي علامة استفهامٍ، وخرج من المقهى مسرعاً، تحت أمطار دمشق أخذت الورقة بين يدي

يا له من رسامٍ بارعٍ، فقد رسمني بدقةٍ عاليةٍ و أبرز ضحكتي، وفي الحقيقة أحببت ضحكتي أكثر ناديت النَّادل وسألته عن ذلك الشَّاب فأجاب:

- ها تقصدين الطبيب يوسف إنَّه يأتي يومياً إلى هنا يشرب القهوة وأحياناً يقرأ كتاباً وأحياناً أخرى يرسم.

- هل يأتي في هذا الوقت دائماً؟

- أجل في السَّاعة السَّابعة مساءً.
- حسناً شكراً لك.

نظرت إلى ابنة عمِّي وإذا بها تنظر إليّ نظرة شكٍّ وتبتسم ابتسامةً طويلةً، فقلت لها باستغرابٍ:

- لا تنظري إليّ هكذا أنا لا أعرفه هذه أوَّل مرَّةٍ ألتقي به.
- أوو حقاً هل تسخرين منّي؟ ربَّما رآك كثيراً واليوم قرَّر أن يعترف بإعجابه، لا تكوني حمقاء فهو اسمه يوسف.
- ايي وماذا يعني ذلك؟
- مسلمٌ صحيح لو كان يعرفك جيِّداً ما كان ليعجب بك أو ليفكر برسمك حتَّى.
- هيَّا هيَّا إلى منزلي لتنامي عندي يا جوليا.
- هيا ولما لا ولكن أتمنَّى من الله أن يهدِّئ أمَّك اليوم، ولا تشغلنا لديها في المسح والتنظيف.

خرجنا من المقهى باتجاه الجامع الأمويّ، وكانت رائحة المطر تنعش قلبي مطر الشَّام يتساقط على أرضٍ عتيقةٍ كانت الأعشاب والزُّهور تخرج من بين الأرصفة السَّوداء القديمة، فما إن تمطر السَّماء حتَّى تزهو دمشق أكثر، وتفوح رائحة المطر من بين حجارتها.

***

يوسف

في اليوم التالي قد جاءت مساعدتي تدعى مريم، وهي أنيقةٌ وملتزمةٌ في دينها محتشمة المظهر، وابتسامتها مشرقةٌ، كانت شابةً في الرَّابعة والعشرين من عمرها، وقد كانت اهتماماتها الكتابة، وحلمها أن تصبح كاتبةً ولكنَّها لم تمارس هذه الهواية، واتجهت إلى حلمها الثَّاني التَّمريض.

وفي الواحدة ظهراً جاءتنا حالةٌ حرجةٌ دخلت إلى غرفة العمليَّات مسرعاً، كانت لشابٍ قد تكسَّر جسده إثر إصابته بحادث اصطدام دراجته النَّاريَّة، وقد حاولنا إنقاذه لكن دون جدوى، وقد فارق الحياة تحت العمليَّة الجراحيَّة (رحمه الله) كانت تجربةً مريرةً بالنِّسبة لي، شخصٌ يموت أمامي ويرتعش جسده، ويسلِّم سرَّه إلى خالقه فهذه ليست أوَّل مرَّةٍ يموت أمامي أحدٌ، ولكنَّها رهبة الموت فرعشة جسده بقيت معي إلى الآن.

ما زلت أذكر كيف اختفت أنفاسه ببطءٍ، والممرضون حولي في عجلٍ فواحدٌ يصعق قلبه بالكهرباء والآخر ير اقب نبض القلب، ربَّما ظنَّ أنَّه في حلمٍ طويل الأمد، وهذه هي الحقيقة أنَّه حلمٌ وحتَّى أنا أشعر بأنّي في حلمٍ لا ينتهي، حياتنا حلمٌ وكيف لا وقد رأيت أمَّه المسكينة قويةً إلى الحدِّ الذي لم أصدق أنَّها أمَّه، عيناها لم تدمعا ولم تفقدْ توازنها، ألقت عليه بنظراتها المتعبة، ولكن ما أقساها من نظرةٍ، وما أقسى عيناها من العتاب، ربَّما قالت له قبل أن يخرج من البيت، لا تركب الدَّراجة يا ولدي فهي قاتلةٌ، سيقتلك تهوُّرك يا بني، لكنَّه استهزأ بكلماتها، كانت تعلم أنَّها النِّهاية ...

أمَّا أنا فبقيت شارداً في كلِّ شيءٍ حولي، والسُّؤال الذي يتردَّد في ذهني، هو لماذا يموت الانسان؟ في ثانيةٍ، يفقد كلَّ شيءٍ. كلُّ شيءٍ سعى لأجله يتبخَّر، وكأنَّه هباءٌ لم يكن، إذاً السُّؤال الأصحُّ الذي يجب أن أسأله لماذا يسعى الإنسان إلى شيءٍ زائفٍ؟ رأيت في الحلم ذات يومٍ أنّي أطير أطير فوق الأرض، لم أعرف جسد أيّ طائرٍ ملكت لكنّي شعرت بالهواء يصفع وجهي، رأيت الأرض من بعيدٍ، كم هي صغيرةٌ يا الله وكم هي متعبةٌ، رأيت النَّاس في الأسفل مسرعين إلى أعمالهم، وما إن حلّ الليل حتَّى عادوا سريعاً إلى بيوتهم كانت تلك لحظاتٌ لا أكثر، كانت أحوال الأرض تتغيَّر بسرعةٍ كبيرةٍ جداً، حتَّى بدأ النَّاس الذين تعوَّدت أن أراهم يختفون،

وتظهر وجوهٌ جديدةٌ وسرعان ما تشيخ وتذهب، اقترب الحلم من النّهاية حتَّى وجدت قبوراً كثيرةً، كانت لأولئك الذين يركضون في أرضٍ لا نهاية لها، يركضون إلى أحلامهم وأموالهم التي رميت في قبورهم هلعت من الحلم يومها تأمَّلت نفسي في المرآة تخيَّلت تلك التَّجاعيد تظهر سريعاً، والموتُ يطرق باب غرفتي، لقد تغيَّرت حياتي من يومها، شعرت بأنّي ميتٌ حيٌّ.

اللامبالاة قد سكنت كلَّ خليةٍ في دمي، والموتُ أصبح أمامي يطرق أبواب الغرفِ يوميّاً، يأخذ أرواح من كانوا قبل بضعِ دقائقَ أحياءً، ماذا يحصل يا الله؟ يكاد عقلي أن يجنُّ مسحت وجهي بكفّي وكأنّي أزيل كلَّ تلك الشَّوائب أو بالأصحِّ تلك الأفكاروالتِّساؤلات الوجوديَّة.

أنقذتني مريم يومها وقطعت شرودي بصوتها النَّاعم، دكتوريجب أن نخرج المتوفي لنكمل الإجراءات هل لك أن تأتي قليلاً، نهضت لأرى تلك الجثَّة مرَّةً أخرى، وكأنَّ العالم قد توقَّف وبقيت أنا معها لوحدي وقبل دقائق كنت أنا الذي يعالجه، شعرت بالذَّنب الكبيروشعرت بثقل كاهلي عليَّ وكأنّي أريد الهروب من الغرفة أريد أن أهرب من هذا الذَّنب العظيم الذي ما زلت إلى هذه اللحظة، أعيشه قد مضى الكثير ربَّما عشرون عاماً، وفي هذه المذكَّرات أسرد كلَّ شيءٍ لتبقى سجني الصَّغير، وليبقى دمي ينزف من جسدي إلى أن تفارق هذه الرُّوح الجسد، ولكنَّ لوريتا لم تجعل هذا يحدث بل وضعت لمستها الخاصَّة والأخيرة.

بعد عدَّة أيامٍ جاءنا سبعة مصابين بحادث حافلةٍ، وفي هذه الحالة يكون الوضع في حالةٍ حرجةٍ جداً، ومن بين المصابين كانت لوريتا شبه مغمضة العينين، وجفونها الحمراء يغطّيها دمها المسكوب من جبهتها، ارتعش صدري حينها، وشعرت بأنَّ كارثةً ما ستحصل ربَّما الخوف قد أعتم سواده على قلبي. دخلت إلى غرفة العمليَّات مسرعاً رأيتها ممددةً

على السَّرير، بدأنا بفحصٍ أوليٍّ لأنَّ لون البشرة كان شاحباً ويخرج من فمها دمٌ أسودُ اللون، بدأنا بإجراء التَّصوير الشُّعاعي للتَّأكد من وجود نزيفٍ داخليٍّ في ثقب المعدة، كانت تصرخ من الألم وتنظر إليَّ و أنا في حالة ارتباكٍ.

تمَّ تخديرها لإجراء العملية، كنت أراها وهي تغمض عينيها شيئاً فشيئاً، ولم أتوقَّع أن أجري عملية لأحدٍ أعرفه، وفي عملنا تحديداً عليك فصل المشاعر أثناء أداء العمليَّة، أو بالأصح أن تدخل إلى غرفة العمليَّات بذهنٍ صافٍ وبلا أعباء الخارج، وأن تحافظ على توازنك وأن تضبط نفسك قدر المستطاع لكي تنجح وإلا ستكون النِّهاية، ستضع نقطة النِّهاية على حياة أحدهم بسبب تشتُّت أفكارك، وهذا ذنبٌ لا يغتفر.

استجمعت قواي والعرق يتصبَّب من جبيني خوفاً من تلك التَّجربة القديمة، خوفاً من أن تُعاد، بدأت بشقِّ البطن وإغلاق مكان النَّزيف وحدث ما كنت أخشاه، واجهتنا مشكلةٌ وهي نقصٌ في الدَّم، كانت زمرة دمها (A+) بدأ المساعدون بالبحث عن الدَّم في المشفى ولكن لم نجد شعرت بأنَّ الكون قد توقَّف، والمقصُّ ارتعش في يدي ماذا بي لم أعلم ولا أستطيع وصف تلك اللحظات الكارثيَّة، أنني أفقد مصاباً آخر ولم يكن مصاباً عادياً، بل كانت تلك التي فطرت قلبي أراها أمامي ترتعش نريد دماً، وإلا ستموت المريضة، كان ذلك صوت مصطفى مساعدي أيضاً نطقت مريم بعجلةٍ وبحروفٍ ملتهبةٍ، وهي خائفةٌ ومرتبكةٌ أنا نفس زمرة دمها، دعْ أحد المساعدين يكمل مهمَّتي سأعود حالاً، وبعد دقائق عادت ومعها نصف لترٍ من الدَّم، مضت ساعتين ونصف حتَّى انتهت العملية بنجاحٍ، كنت فرحاً وخائفاً في نفس الوقت، جيشي الأبيض قد ناضل ليعيش أحدهم، وهذا ما يفرحني، أمَّا الخوف هو ذلك الشُّعور الذي لا يُفهم لماذا أنا خائفٌ؟

وجدت ابنة عمّها التي رأيتها معها في المقهى ورجلٌ وزوجته كانت الفتاة السَّمراء تنظر إليّ بتعجبٍ لم تصدِّقْ أنّي أنا الرَّسام أجري عمليةً لفتاةٍ رسمتها.

- كيف حال ابنتنا؟

هذا صوت جولييت بصوتها الملهوف على ابنة قلبها، وكان والدها ينظر إليّ نظرةً خائفةً نظرةً حادةً وضعيفةً في نفس الوقت، انحناء ظهره قد تكلَّم في تلك اللحظة مستنداً على الحائط متوسلاً بعينيه إليّ أن أخبره أنَّها على قيد الحياة، أن أخبره بأنَّها بخيرٍ، شعرت بهيبة الموت أكثر شعرت بأنَّ الإنسان عندما يفقد أحداً ينتظر كلمةً واحدةً لكي يعيش كيلا يُكسر أكثر.

- بخير لا تقلقي يا خالة ستبقى في العناية المشددة ليومين أو أكثر.

لماذا لم نكن؟

لوريتا

تأخَّرت قليلاً في الجامعة أقرأ كتاباً في علم النَّفس، لأنِّي كنت أنتظر ابنة عمِّي لتنتهي من المحاضرة، وبعدها سنذهب إلى السُّوق لنشتري حاجياتها فبعد أسبوعٍ حفلة زفافها وما أن انتهت حتَّى خرجنا مسرعتين نستقل الحافلة، جلست قرب النَّافذة أتأمَّل المطر، أستعدُّ لكتابة رواية جديدةٍ ولكنّي لم أجدْ أية فكرةٍ حتَّى الآن. وما هي إلَّا ربع ساعةٍ حتَّى اصطدمنا بحافلةٍ أخرى، لا أذكر سوى أنَّ زجاجةً اخترقت بطني، وبعدها لم أعد أشعر بشيءٍ، كانت لحظاتٌ سريعةٌ أذكرها هي ممرُّ المشفى، وأنا على عربة الإسعاف وصوت ابنة عمِّي وهي تصرخ وتبكي وعينا طبيبٍ قد رأيتهما من قبل، أفتح عيني رويداً رويداً لأجد أمِّي فوق رأسي تقرأ بالإنجيل وأبي نائمٌ على الكرسي، لكنِّي لم أستطع الكلام بسبب كمامة الأوكسجين على فمي، أمِّي ماذا حصل يا أمِّي وكيف حالي هل تسمعيني؟ إنِّي أتألَّم كثيراً يا أمِّي اتركي ما بيديك والتفتي إليَّ. لكنَّها كانت تقرأ وتبكي لم تسمع صوتي الدَّاخلي، إلى أن طرق الباب الطبيب، ودخل لوهلةٍ لم أستوعب من هو ولم أذكره إلى أن اقترب منِّي، وقال: الحمد لله على سلامتك اقتربت أمِّي منِّي بسرعةٍ وبدأت تبكي، وتقول كلماتٍ لم أفهمها كنت أنظر إلى يوسف فقط أجل تلك العينان اللتان رأيتهما أجل أنت

- لا تخافي يا خالة هي بخيرٍ تريد الرَّاحة فقط. (قال هذا وهو يغرس إبرة في كيس السِّيروم المعلَّق بيدي)

- متى سنتمكن من إخراجها؟

- يومان أو ثلاثة فقد نريد الاطمئنان عليها لا أكثر.

- حسناً شكراً لك.

كنت أنظر في عينيه خلسةً قد فطرت قلبي تلك العينان السوداوان والرُّموش الطويلة والأكتاف العريضة، صوته وهو يتكلم، وما هي إلا ثوانٍ حتَّى بدأ ينظر إلى أمّي، وهي تصلِّب على جسدها وتقول يا عدرا احميها تذكَّرت حينها ذلك النِّقاش الذي دار بين أبي وعمّي قبل سنةٍ عندما تعرَّضا لموقفٍ مهينٍ من متطرفين إسلاميين، قال عمّي في لحظة غضبٍ عندما كان يشعل سيجارته في بيتنا همجٌ وإرهابٌ وتعصُّبٌ. اللعنة عليهم جميعاً، فردَّ أبي عليه ردّاً قد صدمت يومها منه، منذ ألف سنةٍ كان الإسلاميُّون المتطرفون يقتلوننا إذا لم نتبّع دينهم.

ظلَّت تلك الكلمات ترنُّ في أذني كلَّما قابلت مسلماً حتَّى يوسف رأيت الشَّرَّيخرج من عينيه عندما وجد أمّي تصلِّب حيث خرج مسرعاً إلى أن حلّ المساء، وأمّي كانت خارج الغرفة و أبي قد عاد إلى البيت سمعت طرقةً خفيفةً على الباب، تحرَّك المقبض إلى الأسفل بدأ الباب يُفتح، وصوت همسٍ بعيدٍ فأغلقت عيني وتظاهرت بالنَّوم، جاء صوت يوسف من فوق رأسي يهمس:

- إنَّها نائمةٌ، تأكَّدي من جهاز التَّنفس.

- لا تقلق عليها فهي بخيرٍ.

- دكتور يوسف أريد أن أسألك لماذا أنتَ الذي تأتي إلى هنا وتتأكَّد من صحَّتها فهي ليست مهمَّتك بل مهمة الممرضين؟

- تعني لي الكثير هذه الفتاة يا مريم، لم أملك كلماتٍ توصف فرحتي وشكري لك عندما أعطيتها من دمك.

- هذا واجبي يا دكتور يوسف

- حسناً ضعي هذا الدَّواء في كيس السِّيروم.

- ما بالك تطيل النَّظر إليها؟

- لا شيء لكنَّها ملاكٌ نائمٌ انظري إليها.

خرجا من الغرفة بهدوءٍ ففتحت عيناي ولم أصدق ما سمعت بقي صوته عالقٌ في أذني. وفي اليوم الثَّاني أمَّي و أبي و ابنة عمِّي وعمِّي قربي يسردون الأحاديث وذكرياتٍ قبل الحادث ثمَّ سأل عمي فجأة:

- صحيح تلك الممرِّضة التي تبرَّعت بالدَّم للوريتا مسيحيَّة صحيح؟

فأجاب أبي بسرعةٍ:

- أجل لا تقلق.

- جيد

كنت أسال نفسي لماذا كل هذا الحقد عليهم، وكنت أعلم جيداً أنَّ أبي يكذب، لكيلا يصطدم مع عمِّي أعلم تماماً أنَّ أبي يحبُّ جيرانه المسلمين، فكم من مرَّةٍ تناولوا الإفطار في بيتنا في شهر رمضان، وكم من مرَّةٍ تشاركنا أحاديث الدِّين، و انتهت بالحبِّ والمودةِ أكثر والآن يسري في جسدي دم مسلمةٍ حسناً و أين المشكلة؟ لماذا لم نكن كلنا ذات دينٍ واحدٍ، لماذا الاختلاف يا الله؟ كنت أعلم في داخلي أنَّ هناك حكمةٌ ما ولن أعرفها إلَّا إذا سمحت ليوسف بالاقتراب منِّي أكثر، أو بالأصحِّ هي رغبتي أيضاً هي تلك الرَّغبة التي لا تستطيع أن تقف في وجهها، تسحبك معها إلى عالمك الخاصِّ عالمك الذي تخلق فيه الكون وتهدمه بمجرد فكرةٍ لن يعاقبك عليها أحدٌ، عالمك الذي يعتم الكون الحقيقي

وفي اليوم الثَّالث و أنا أربط شعري في السَّاعة الثَّامنة صباحاً أحاول أن أبدو نشيطةً، اليوم يوسف سيأتي الآن أعلم ذلك أحاول أن أبدو بأجمل مظهرٍ، كانت أمِّي تجلس بقربي.

- أمي ما رأيك أن تخرجي وتحضري لي عصيراً من الأسفل؟

قامت من على الكرسي بفرحٍ، وكأنَّها استرجعت روحها مرَّةً أخرى، وكأنَّ الله أعطاها فرصةً ثانيةً، لتكفِّر بها عن خطاياها أو ربَّما أنا تلك التي أُهديت عمراً جديداً.

- حسناً يا أميرتي هل هناك شيء آخر؟
- لا كوني في أمان الله.

الجزء الثَّاني

لقاء الوداع حين التقينا

يوسف

أستعدُّ لأراها آخر مرَّةٍ أعلم تماماً أنَّها ستذهب اليوم، وبعد ساعاتٍ قليلةٍ تحديداً، ها أنا أمام المرآة في غرفتي الخاصَّة أرتِّب المريول الذي طالما لبسته، و أنا أراقب الأرواح التي تهرب من هذه الحياة، تذكَّرت تلك العجوز آه ما أصعب ذلك اليوم قبل سنةٍ ونصف أراقب عينيها التي تناجيني يدها النَّاعمة التي أكلها الدَّهر، وأصبحت عروقها بارزةً وجلدها الرَّقيق وكأنَّ الهواء يخدشه كنت أقف عند الباب، وكنت أعلم تماماً بأنَّ السَّرطان قد تمكَّن منها حرفيّاً لن تعيش كثيراً، ربَّما هي أيامٌ قليلةٌ ربَّما ساعاتٌ وربَّما بعد أن أنهي النَّظر إليها، قد تسلِّم السِّرَّ إلى خالقها وما أصعب ذلك اليوم قد أخبرني صديقي الطبيب مازن أنَّ حالة هذه العجوز يُرثى لها، سألته يومها أين أبناؤها؟ فلم يأتِ أحدٌ منهم منذ أسبوعين، حتَّى أنَّها أتت لوحدها، ولم يكن معها أحدٌ ذلك الكلام قد أثار فضولي فانتظرت إلى أن حلَّ صباح اليوم التَّالي ها هي السَّاعة الخامسة والنِّصف، قبل شروق الشَّمس بقليلٍ، طرقت باب غرفتها فلم ألقَ جواباً طرقته مرَّةً أخرى، لكن لم تجبْ ففتحت الباب بفزعٍ وأوَّل فكرةٍ كانت هي أنَّها ماتت بسبب تدهور صحَّتها، لكن عندما دخلت مسرعاً وجدتها تصلِّي على السَّرير، اقشعرَّ جسدي يومها وشعرت بأنّي أسوأ إنسانٍ على الأرض، وكيف لا وليس لدي عذراً لكي أتجنَّب شهوات الدُّنيا الزَّائلة، كانت الغرفة إضاءتها هادئةٌ جداً ضوء الصَّباح الباهت القادم من الخارج يعطي الغرفة هيبة الحياة، جلست على الكرسي أنتظرها كنت أتأمَّل عينيها الغائرتين، وتجاعيدها جعلت عيني تدمع لم أستطع أن أفهم ما بي وما سرُّها لماذا أنا متأثرٌ جداً بهذه العجوز، ولكن لم أفهم الحكمة إلَّا عندما أنهت صلاتها ونظرت إليّ نظرةً حزينةً وقالت بصوتٍ متعبٍ وهي تعيد جسدها إلى الخلف وترمي برأسها بعيداً عني

- هل جئت لكي تودعني؟

- لا بعيد الشريا حجّة ولكنّي جئت للاطمئنان عليك

- بخير أنا يا ولدي بخيرٍ وآه كم أنا بخيرٍ

قالت هذه الكلمات بابتسامةٍ خفيفةٍ متعبةٍ، نظرت إليَّ بعينين بريئتين وكأنَّها لم تخرج من هذه الغرفة طيلة حياتها، ولم ترَ بؤس هذه الحياة.

- هل تعلم ما أجمل شيءٍ في كون رتَّبه الله أفضل ترتيبٍ؟

نظرت إليها بخشوعٍ شعرت بأنَّها ستقول كلماتٍ بها مفتاح هذه الحياة.

- ما هو؟

- التَّضرُّع بين يدي الله خشيةً و إيماناً بلقياه فقد

روى مسلم (657) عن جندب بن عبدالله ﷺ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلَّم: (مَن صَلَّى الصُّبحَ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ، فَلا يَطلُبَنَّكُمُ اللَّهُ مِن ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ فَيُدرِكَهُ فَيَكُبَّهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ. (

- صدقتي يا حجَّة.

- انتبه يا ولدي هذه الحياة قصيرةٌ جداً وأعلم أنَّك جئت إليَّ لسببٍ ما، فما هو؟

- لا أدري صدقيني لكنَّ قدماي قادتني إليك.

(نظرت إليَّ نظرةً هادئةً مليئةً بالحبِّ) وقالت:

- ادفنوني في دمشقَ يا ولدي، هنا على هذه الأرض هنا دمشق الياسمين التي أحببتها وأحبَّتني طوال تلك السِّنين، ما أقسى فراقها يا بني ما أقساه.

- الله يعطيكِ طول العمر يا أمِّي.

ابتسمت وقالت:

- قل ما تريد لم يبق الكثير.

- أين أولادك؟

- في الجنة.

- رحمهم الله أعتذرعن سؤالي.

(ضحكت ضحكةً من قلبها إلى الحدِّ الذي بدأت بالسُّعال مع كلِّ شدَّة عضلةٍ في وجهها المتآكل).

- لا هم في جنَّة الأرض.

- لم أفهم !!

- يتلذذون في الحياة، ونسوا أنَّ لديهم أمٌّ تدعو لهم صباح مساء، فالأوَّل قد هاجر إلى كندا، ونسيني ولم يعد يتصل بي والثَّاني تزوَّج وذهب إلى حلب ليعيش مع زوجته، ومثله مثل أخيه نسوا أنَّ لهم أمٌّ تريد رؤيتهم قبل أن تموت، آآآه يا ولدي ما أصعب فراقهم فلم يعد لي الكثير و أنفاسي تتخبَّط في صدري، وتنازع خلاياها المتعبة.

- أطال الله عمرك يا حجَّة.

نظرت إلى سقف الغرفة وعيناها شبه مغمضتين مستسلمتين إلى نداء ربّهما

- لا يا بني لم يبقَ الكثير.

- كيف؟ لم أفهم وهل يشعر الانسان بأنَّ أجله قد اقترب؟

- طبعاً.

- كيف؟

- تسمع أصوات من كنت تحبُّهم وذهبوا إلى مثواهم الأخير ...أنّي أرى زوجي وشريك العمر (عُمر) الذي أخذته هذه الحرب القاسية ينادي لي كلَّ يومٍ في الحلم اشتقت إليه جدّاً يا بني

أفزعتني تلك الكلمات حقّاً، شعرت بأنّي أريد الهروب من أيّامي ومن فلسفة الحياة القاسية، أخذني عقلي إلى فكرة الوجوديَّة والدِّين معاً وبالكاد أستطيع دمج العالم في جمجمتي، وأعلم أنَّ الحياة تتسرَّب من بين أصابعي، والعمر يجري أسرع من أنفاسي التي تقاتل لكي تعيش، أردت أن أسألها ما هي أحلامها؟ التي لم تستطع أن تحققها رفعت نظري إليها قد توقف الكون وسمعت شهقاتها المتكرّرة، تجمَّد جسدي ولم أستطع فعل شيءٍ لإنقاذها، نظرت إلى عينها كيف كانت تلتوي إلى الخلف وكيف جسدها ينتفض، ارتعش قلبي معها رهبة الموت قد عشَّشت على حيطان المستشفى. وفي هذه الغرفة تحديداً قد زارها ملك الموت أكثر من مرَّةٍ، وربَّما كان ينظر إليَّ في كلِّ مرَّةٍ، إنّي أعلم يا الله بأنَّ هذه الإشارات لا تأتي عن عبثٍ، وبأنَّ روح الحجَّة قد وقفت أمامك الآن وتنظر إليَّ وتقول ألم أقل لك بأنَّ هذه الحياة أقصر ممّا تظنُّ يا بني كلماتها تصدح في رأسي وما زلت إلى هذه السَّاعة أراها في منامي ومازالت رهبة هذه الغرفة تخيفني والأغرب من كلِّ هذا لوريتا تمكث في هذه الغرفة وعلى سرير الحجَّة اتجهت بسرعةٍ إلى غرفتها وكأنَّ الحادثة حدثت البارحة

اقتربت من الباب لأفتحه فجأةً فتحت جولييت الباب مسرعةً وقالت:

- ها أيُّها الطبيب كيف حالها؟

- بخيرٍ بخيرٍ فاليوم يمكنها الخروج، قلت هذا وقلبي يرفض فكرة أن تذهب ستذهب بلا عودةٍ بلا لقاءٍ آخرَ.

-

- حسناً أنا بضعة دقائق وأعود هل يمكن أن تبقى قربها ريثما أعود لن أتأخَّر، وهمَّت بالذَّهاب لم تسمع جوابي حتَّى ولم تكترث بعينيَّ الخائفتين.

- صباح الخير آنسة لوريتا كيف حالك اليوم؟

- صباح النُّور بخير شكراً لك.

- تفضَّلي هذا الفطور.

- شكراً.

رأيت الحجَّة بعينيها وكأنَّ الموت يحيط بكلِّ جانبٍ، وكأنَّ روح الحجَّة لم تفارق هذا المكان صوتها هنا (هذه الحياة قصيرة يا بني) أخذت مني لوريتا الطعام وهي تنظر إليَّ.

- هل أنت بخيرٍ؟

نظرت إليها متغابياً متجنِّباً النَّظر إلى وجهها.

- بخيرٍ.

صمتت لوريتا شعرت بنظراتها تخترق وجهي وجسدي، وبأنَّ دفء عينيها يتسرَّب إلى مفاصلي، نظرت إليها ولوهلةٍ اشتعل القلب بها ووجهي مختنقٌ وصوتي خافتٌ خائفٌ من ضياعها.

- هل يمكن أن ألقاك غداً في نفس المقهى الذي رأيتك فيه أوَّل مرَّةٍ؟

قلت تلك الكلمات بدون وعيٍّ ماذا يحصل لي لا أعلم لكن كلُّ ما أعلمه بأنَّ الحياة لن تنتظرني وستسرق لوريتا منِّي، فطرة القلب يا الله ما أجملها يومها، الحبُّ الذي زرعته جميلٌ للغاية إذا أتقنَّاه كيف تزرعه هكذا بدون حسبان؟ أسئلة الوجوديَّة ترهقني جدّاً ولكنّي لا أستطيع إيقافها أبداً ولماذا أوقفها إذا كانت البصيرة الوحيدة لفهم شيءٍ لا يُفهمْ، سأبحث في عينيها عن الإجابة، سأظلُّ أراقب الكون الذي في عينيها حتَّى

أملَّ وأشيخ، ولا يهمُّني الوقت أن يمضي يهمُّني أن أطيل النَّظر حتَّى لو غطَّى الشَّيب رأسي، والتَّجاعيد أكلت جبهتي سأظلُّ أتأمَّل كونك الخاصّ يا لوريتا. لم تجب بل ابتسمت ابتسامة استغرابٍ ممزوجةٍ بالخجل الرَّباني، واحمرَّت وجنتاها تريد الكلام لكن لم تستطع، لذلك أكملت أنا وقلت في السَّاعة الرَّابعة عصراً.

لوريتا

كنت أسأل نفسي ما الذي ينتظرني هناك ...ما سرّ تلك القهوة العمياء؟ ماذا فعلت بي يا يوسف وإلى أين تسوقني قدماي؟ كيف أسير مغمضة العينين إليك، ها أنا أقترب منك و أقترب من صوت فيروز الذي جمعني بك، ها أنا أراكَ من بعيدٍ جالساً تتأمَّل قهوتك في حيرةٍ يا ترى بماذا تفكر؟

دخلتُ إلى المقهى، وما إن التفتُّ إلى المكان الذي التقيتكَ فيه أوَّل مرَّةٍ حتَّى تلاقت العيون مرَّةً أخرى، وكيف العمر يسير من بين عينيك يا يوسف؟ لماذا العمر يتدفَّق من عينيك سراجاً منيراً، يجعلني أسير إليكَ مغمضةَ الحواس، وأمشي رويداً رويداً بخطواتٍ متشابهةٍ ثابتةٍ وحادَّةٍ مستقيمةٍ ببصيرة القلب الجميلة، اشتعل قلبي من عينيك يا يوسف، وكأنَّكَ رائحة وردةٍ دخلت إلى صدري فأزهرَ، اقتربت منك ببطءٍ ولم يكن على لساني كلماتٌ أبداً، ونسيت كلَّ شيءٍ تعلَّمته في علم النَّفس. كنت تنظر إليَّ وعيناك تضحكان من الفرح، ما أجمل لمعة عينيك عندما يختلط سوادها بغمرتها بين الجفون؟

- تفضلي بالجلوس.

ووضعت يديك على صدرك وكأنَّك ألقيت السَّلام عليّ من بعيدٍ كنت في غاية القلق والخجل ولم أعلم ما بي، تلك اللحظة الخاطفة ماذا أخذت مني يا ترى وماذا أعطتني؟

- كنت أنتظر قدومك يا لوريتا، كنت أعلم أن قدميك لن تخونا الطريق.

(أجبته بخجلٍ والعرق يتصبب من جبهتي) ...

- جميل إذاً لماذا تريد لقائي؟

(نظر إلى الطَّاولة ولم يجب بل غيَّر الحديث من الأساس)

- أعلم أنكِ تحبّين القهوة سأطلب فنجاناً لك.

- حسناً.

- بما أنَّك كاتبةٌ بماذا تصفين هذه اللحظة؟

- مثل شعورك عندما رسمت شخصاً لا تعرفه، وها أنا أجلس مع شخصٍ لا أعلم عنه شيئاً سوى أنَّه طبيبٌ أنقذ حياتي، ورسامٌ رسمني بدقةٍ متناهيةٍ

- هل تؤمنين بأنَّ الإنسان يصبر طول عمره ليلتقي الحبَّ الحقيقي ليتحوَّل من حبّ كيانه إلى حبّ كيانٍ لا يفهمه!! هي لحظةٌ عابرةٌ يا لوريتا لا يعود الإنسان بعدها كما كان، فلا صوته ولا يداه ولا عيناه ولا دماؤه التي تجري في عروقه منذ الأزل لن تعود إلى مجراها الطبيعي، بل تصبح في يده قريب قلبه، نظرةٌ منه تزيد تدفق الدَّم في قلبه وغيابه ليومٍ واحدٍ، يجمّد الدَّم في عروقه.

غَرِقتْ عيناه في عيني يومها وسألته بخوفٍ وتردُّدٍ:

وكيف وكيف نعلم بأنَّه حبٌّ حقيقيٌّ؟

- من تلك الرَّجفة يا لوريتا، من أغنية فيروز التي سمعتها أوَّل مرَّةٍ رأيتك فيها، ففي كلّ مرَّةٍ أسمعها تأتين أنتِ تتراقص عيناكِ وشعرك في مخيلتي فلا أهتدي النَّوم ولا الطريق إلى البيت، أبقى في الشَّارع بين الأزقَّة

أترنَّح مثل شارب الخمر، أنتظر الهداية الرَّحمانية فأبتعد وأمشي لعلّي أراكِ صدفةً.

- ولكنها من علامات الإعجاب يا يوسف (قالت هذه الكلمات وهي تضحك)

كيف أخبرها بأنّي أحببت ضحكتها حتَّى وهي تستهزأ بكلماتي، أليس حباً حقيقاً هذا؟

- لا يا لوريتا هناك فرقٌ بسيطٌ

- ما هو؟

- الإعجاب ينتهي عندما نرى الحقيقة مثلاً ينتهي الإعجاب، عندما نرى الشَّخص المقابل بلا مستحضرات التَّجميل، ينتهي عندما نعرف سبب حبنا له. أمَّا أنا فلم أعرف بعد ولا أريد أن أعرف بالرُّغم من أنّي أريد أن أفسِّر كلَّ شيءٍ يحدث صدفةً ولكن أؤمن بعينيك أكثر من البحث عن سببٍ يجعلني أطيل النَّظر إليهما، لكن عندما رأيتك في المستشفى بلا أي شيءٍ أحببت الحقيقة الوجوديّة فيكِ، أحببتك بوجهك الجميل الذي يأسرني يا لوريتا.

- و أنا أريد إخبارك بشيءٍ يا يوسف.

سرحتُ في كوب القهوة أمامي أراقب البخار الصَّاعد وعيناي ثابتتان. ابتعلتُ ريقي وقلت:

- لا شيء لا شيء.

- هيا تكلَّمي هذه الحياة أقصر من هذه المعزوفة التي نسمعها الآن ربَّما لا تتجاوز الثلاث دقائق هذه هي حياتنا ثلاث دقائق لا أكثر.

- حسناً سأقول لكن لا أريد أن تأخذ كلامي على محملٍ شخصيّ، ربَّما أنا أيضاً لوهلةٍ عينيك قد طغت على قلبي، شكرت الله على هذا الحادث الذي أتى بي إليك.

- ولكن لو لم نكن من دينٍ مختلفٍ.

لم أستطع إكمال ما أريد نظرة عينيك تربكني وكأنَّك تقول أعلم ولكن ما ذنبي. تعكَّر الجوُّ يومها وفي داخل كلّ منَّا ألف سؤالٍ، وآلاف النَّظرات التي تفطر القلب ولكن لا أحدٌ منَّا يجرؤ على الكلام، لأنّنا نعرف الإجابة

***

يوسف

قاطعت صمتي بصوتها قائلةً:

- يوسف أريد أن أسألك شيئاً ما.

- تفضلي.

- ما سرُّ كلمة الحياة قصيرةٌ جداً؟ ففي اليوم الثَّاني عندما دخلت أنت ومريم لتفقدي في الحقيقة كنت مستيقظةً وسمعت كلَّ شيءٍ لكن عندما خرجتما لم أنمْ، و أنا أفكِّر في كلامك حتَّى آخر الليل وعلى العموم غفوت لدقائق معدودةٍ، ورأيت سيّدة كبيرةً في الحلم تجلس قربي وكانت تقرأ كتاباً دينيَّاً، ربَّما كان القرآن لا أعرف لكن عندما نظرت إليها نظرت إليَّ، وقالت:

- ستشيخين فجأة يا ابنتي، الحياة قصيرةٌ واختفت واستيقظت.

ارتعش جسدي يومها وقلت بانفعالٍ هل هي سيّدةٌ بيضاء وتلبس غطاءً أبيض وعيونها سوداء داكنة؟

سألتْ بدهشةٍ وبخوفٍ:

- من من من هذه هل تعرفها؟

- كم كانت السَّاعة عندما استيقظت؟؟

- لا أعلم ربَّما الخامسة صباحاً لأنَّ ضوء الصَّباح يضيءُ الغرفة. ماذا هناك؟ من هذه هل كان حلماً أم حقيقةً أم ماذا أجبني يا يوسف كيف عرفت شكلها؟

- كانت هنا في هذه الغرفة قبلك وخرجت.

- هل شفيت؟

حاولت أن أهدّئ نفسي وقلت:

- أجل شفيت إلى الأبد.

- إذاً لم أفهم لماذا رأيتها في الحلم من هي؟

- هي تلك المريضة التي لم تسأل عن صحتها، منذ دخولها المشفى بل كانت تعرف الإجابة، ما رأيك أن نذهب إليها لنطمئن عليها؟

تلعثمت بالكلام ولكنَّه الفضول ما دفعها للمو افقة على الذَّهاب

***

لوريتا

أقف أمام قبر الحجَّة بفزعٍ ولم أتوقَّع بأنَّها توفَّت لم أجد إلّا يوسف ممسكاً بيدي للمرَّة الأولى متَّجهاً إلى المقبرة وقف أمام قبرها قائلاً:

- ها هي التي علمتني درساً لا أنساه يوماً الحياة قصيرةٌ يا بني

وقفت برهبةٍ أمام ترابها وفي خاطري ذلك السُّؤال ...لماذا زارتني في الحلم؟ هل أجلي قد اقترب؟ أم أنَّها صدفةٌ عابرةٌ؟ يكاد رأسي ينفجر، نظرت إلى يوسف رأيته يرتّل القرآن فوق قبرها لم أعلم ماذا أَصنع أو ماذا أقول، أيقنت يومها أنَّ اختلاف الدِّين بيننا لن يجمعنا يوماً، كلٌّ منّا له دينه وعقيدته التي تربَّى عليها. عدت إلى البيت وسردت القصَّة على أمّي ولم أرَ في ملامحها الجديَّة أو ربَّما لم تصدِّق القصَّة التي لا تُصدَّق.

أمَّا أنا ويوسف فقد اتفقنا بالعيون عندما وصلنا إلى البيت، لن نعد نلتقي أبداً، أدركنا الحقيقة المطلقة.

***

يوسف

أضرب رأسي بالحائط أحاول أن أجد حلّاً لهذه المعضلة، لكنّي مرتكياً على الجدار لا أملك شيئاً أقوله، أمسكت الهاتف أريد الاتِّصال بها لقد مضى يومان على موعدنا في المقهى، أفكِّر فيها طول الليل. ضحكتها صوتها وغرَّة شعرها، عندما تحني رأسها وتسقط، تميتني يا لوريتا، هل تفكرين بي؟ أم أنَّ المنطق يحتلُّ عقلك الآن، لا لن أتَّصل فهي على حقٍّ لن نكمل.

في اليوم التَّالي لم أكن بخيرٍ فقد سهرت طوال الليل، أرسمها على الورق أنقل ضحكتها من الخيال إلى واقعٍ أستطيع لمسه. جاءت مريم إليَّ فبعد أن أصبحنا أنا وهي كالأخوة لا نفترق أبداً، سألتني:

- هل أنت بخير يا يوسف كان ذلك صوت مريم التي تقطع ضجيج الأفكار في عقلي دائماً.
- أجل يا مريم شكراً لك.
- ما بك جالسٌ طول اليوم على الكرسي لم تتحرك؟
- أفكِّر.
- بماذا؟ منذ أن خرجت تلك المريضة من عندنا و أنت في سارحٌ هل هي السَّبب؟
- ربَّما لا أدري (حاولت تغيير الموضوع فسألتها):
- كيف حال خطيبك؟
- بخير شكراً لسؤالك.

- كيف التقيتما؟

ضحكت ثمَّ قالت قصّة يا يوسف وكأنَّها رواية استدرت نحوها وطلبت منها أن تخبرني.

- حسناً لك هذا، قبل عامٍ وشهرين وسبعة أيَّام بالضَّبط كنت في الحافلة، وأنا أمامه أتحدَّث على الهاتف رأيته ينظر إليّ نظرةً غريبةً ممزوجةً بالحياء، ولكنِّي لم أهتمّ له ومضت الأيام سريعاً حتَّى أصبحت شهراً، وفي أحد الليالي يدخل أبي وصوت شابٍ معه، وكان الصَّوت غريباً لم أسمعه من قبل، ألقيا السَّلام ودخلا إلى غرفة الضُّيوف وأمَّا أنا فكنت في غرفتي أعيد ترتيب مكتبتي الخاصَّة، دخلت أمّي في عجلٍ وقالت هناك عريسٌ لك يا مريم هيا استعدي لتري والدته وترينه وبالرُّغم من أنِّي لا أريد هذه التَّجربة وأعيدها.

- سألتها باستغرابٍ تعيدي التَّجربة؟

(صمتت واحمرَّ وجهها فشعرت بأنّي تدخَّلت في حياتها أخذت نفساً عميقاً) وقالت:

- أجل كنت خطيبة محامٍ ولكنَّه لم يعدل بي وقصَّته طويلةٌ يا يوسف.

(رأيت دمعتها تنفرُمن عينيها وما أقسى حزن القوارير.)

- حسناً أكملي قصّة خطيبك لأنَّ الفضول بدأ يلعب بعقلي

(نظرت إليّ مبتسمةً والدَّمعة العالقة بين رموشها قد ازهرت)

- وعندما دخلت إلى الغرفة، شعرت بارتياحٍ له ولكنِّي كنت واثقةً بأنّي أعرفه من قبل، ولكنّي لا أذكر أين وبالفعل تمّت الخطبة وفي أحد الليالي قال لي:

- مريم هل حقاً لا تذكريني؟

- أقسم لك بأنَّ وجهك لم يكن غريباً عليّ.

- هل تذكرين ذلك الشَّاب الذي كان ينظر إليك، و أنت في الحافلة

صمت لوهلةٍ وقلت له:

- وكيف عرفت بيتي؟

- في الحقيقة أنا لم أبحث عنك ولكنّي قلت في سرّي اللهم اجعلها لي، إن كان ذلك يرضيك. ومضت الأيَّام يا مريم إلى أن جاءني والدك أمام الجامع الذي أصلّي فيه، وألقى علي السَّلام وقال: هل أنت لديك أولاد يا بني؟ أجبته باستغرابٍ وقلت لا يا شيخ أنا لم أتزوَّج حتَّى الآن لماذا تسأل؟

- لأنّي رأيتك في رؤية من الله في بيتنا تطلب يد ابنتي.

لم أستوعب فكرة أن هذا ما حدث وفعلاً أخبرت أمّي و أبي وذهبنا إليكم وصعقت عندما رأيتك شعرت بأنَّ قلبي سيخرج من صدري فعلاً مثل الحلم سبحان الله جامع القلوب.

- هذه هي قصَّتي من أوَّلها إلى أخرها و أنت يا يوسف هل أحببت تلك الفتاة؟

وهززتُ رأسي إلى الأسفل ثمَّ أدرت رأسي بعيداً عنها أفكِّر ماذا سأقول؟ تلمع صورتها في ذهني فترهقني، أدرت رأسي إليها وقلت أعلم أنَّ هناك حكمةً من هذا الحبِّ، ولكن لن نكمل يا مريم، إن جمعتنا دمشق فالدِّين قد فرَّقنا، لا أعلم ما أقول أجل أحببتها ولكن قالت لي الحقيقة التي كنت لا أريد أن أواجهها، هل تدركين أسباب الفشل؟

- الخوف؟

- صحيح، ذلك الخوف الذي يثبت الوحل في قدمينا وليس العكس

- لم أفهم!!

- الخوف هو حبلٌ صغيرٌ متَّصل بين الوعي والحقيقة ...لذلك نحمله معنا أينما ذهبنا إن قطعناه فسنفقد أحدهما هل نفقد الحقيقة ونعيش في الوهم؟ أم نفقد الوعي ونمضي إلى المجهول بلا خريطة؟ بالرّغم من أنَّ الخوف مؤلمٌ إلا أنَّ حياتنا لا تكتمل من دونه، ماذا أفعل ؟

***

مريم:

- كان أبي يقول لي عندما كنت طفلةً: الله يضيء القلب، فإذا اختار القلب شيئاً فهو إمَّا حكمةٌ أو طريقٌ مستقيمٌ.

- أعتقد أنَّ هذا الحبّ نهايته الحكمة والتَّعلُّم.

- أو ربَّما يكون طريقاً مستقيماً.

نظرت إليها وقلت: لم أفهم.

- قالت اتبعْ شغفك بها وامضِ بلا خريطة، ربَّما في الطَّريق ستجد آلاف القناديل المضيئة.

ثمَّ قامت وتركتني في حيرةٍ أكبر، لكن أوَّل مرَّةٍ أمتلك مثل هذه الشَّجاعة للمغامرة، المضي في طريقٍ بلا أضواء وكنت أعلم بأنَّ هذا القرار سيغيّر حياتي إلى الأبد.

هل كانت صدفة؟

لوريتا

خرجت من المحاضرة للتوّ، لدي موعدٌ مع صديقتي سيدرا، للذَّهاب إلى المكتبة وشراء بعض الأشياء، ولكنَّ أكثر شيءٍ أريده دفتراً جديداً أكتب عليه حياةً جديدةً. يوسف الذي دخل حياتي عنوةً ولا يريد الخروج منها، ربَّما أنساه في شهرٍ ولكن بفضله وجدت فكرة الرَّواية الجديدة، التَّعصب الدِّيني والعنصريَّة والتَّنمر، شكراً لك يا يوسف قد دخلت حياتي فجأةً و أنرتها و أنقذتني من الموت، خوفك عليّ في المستشفى قد رأيته في عينيك، شكراً لتلك التَّفاصيل وبينما أكلِّم نفسي خارجةً من باب الكليَّة، وجدته أمام الباب ينظر إليَّ مبتسماً، لحظةٌ لا يمكن وصفها ونسيانها، اقتربت منه وفرحتي أكبر من الأرض والسَّماء، ألقينا السَّلام ولما سألته لماذا أنت هنا؟ أجاب هذا واجبي كطبيبٍ، أتيت لأطمئنَّ على مريضتي ضحكت وقلت وهل تأتي إلى كلّ المرضى بشكلٍ شخصيٍّ هكذا؟ فأجاب عندما يكون كلُّ مرضاي تجمَّعوا في شخصٍ واحدٍ. اشتعلت وجنتاي من الخجل ولكنَّه أنقذ الموقف بسرعةٍ وقال لنتمشَّى قليلاً. وبدأنا المشي وتحادثنا عن حياته وحياتي عن كلّ شيءٍ ما عدا الحبّ ولكنّي رأيت الحبَّ في عينيك لا داعي لأن تقول ... و أنت أيضاً رأيت مقدار فرحتي بك ...حتَّى أنّي نسيت صديقتي إلى أن اتَّصلت بي واعتذرت منها

- من تلك؟
- صديقتي سيدرا كنَّا سنذهب إلى المكتبة
- أعتذرلم أكن أعرف أنَّ لديك موعد
- لا لا عليك ...أريد البقاء معك .... (لم أكن أعلم أنَّ هذه الكلمة قد تعني الكثيرلك يا يوسف ..لم أجد أيَّ تعبيرٍيفسِّر ملامح وجهك).
- ما رأيك أن نذهب سويّاً إذن؟

- هيّا.

بينما كنت أجهّز حاجياتي اللازمة، كان يوسف يمسك بالإنجيل ويقرأ، لم أفهم لماذا يقرأ به ولكنَّ الأغرب من هذا أنَّه اشتراه، ولمَّا سألته لماذا اشتريته قال لأنَّك مسيحيَّة ولأنَّ النَّصارى كلّهم في نظري أنتِ، أريد البحث عن جمالك فيه.

عندما عدت إلى المنزل كان عليّ إتمام رسالة إلى الجامعة، كان علينا اختيار موضوعٍ عن طبيعة الإنسان، فلم يخطر في بالي سوى الخوف الذي يعيشه يوسف، والخوف الذي عشته في الأسبوع الفائت. أردت أن أتغلَّب عليه وأكمل معك يا يوسف. أمسكت القلم بين أصابعي المرتجفة ممَّا سأقوله وبدأت بخط الحروف.

العنوان: الخوف

هذه الرِّسالة تخصُّ كاتبها فقط، وتعبّر عن آرائه بالخوف والتَّعلق لذلك أستاذي الكريم هذه ليست سوى رسالة ذاتيَّة منّي أنا لوريتا ...

(أنت منطفئٌ، داخلك ظلامك الدَّاكن، يتعالى عليك صوت القلق كلَّما نظرت إلى ساعتك، التي وضعتها على الحائط نصب عينيك خائفٌ؟ منهكٌ؟ تلقَّيت ضربات الحياة حتَّى أصبحت روحاً فارغةً من ذاتك، أين ذاتك؟ كيانك حلمك الذي تخطَّى حدود السَّماء؟ ... هل السَّماء أنزلت أسوارها منذ نَشَأت الخليقة؟ أغلقْ عينيك قليلاً اسألْ نفسك سؤالاً تخاف الإجابة عنه؟ انظرْ إلى نفسك في المرآة، هل التِّجاعيد تملَّكت أزقة الياسمين؟

أسئلة الذَّات لا ترحم ...لا تهجر نصف قلبك لا تمكث في الماضي ولا ترى الصُّورة فقط من لونين، عليك أن تبحث دوماً عن ذلك السُّؤال الذي في داخلك، لماذا خُلقت الكثير منَّا لم يعرف الإجابة؟ والكثير منَّا

يردعه الخوف من الحقيقة ..الخوف هو سبب أسئلة الذَّات الحقيقيَّة وفي نفس الوقت هو الإجابة نفسها، خوفك من سؤالك لذاتك قد يثبت قدميك في الطين، وتغرق رويداً رويداً إلى أن يصبح جسدك غارقاً في الوحل ورأسك فقد خارجه، لتقضي حياتك فقط لتأكل وتنام، وتبتعد كلَّ البعد عن الحقيقة. قرأتُ في أحد الكتب شيئاً عبقريَّاً في رأيي، وهو:

في أوقاتٍ ما، العقل يخلق و اقعاً مزيَّفاً لكي يحمي نفسه من الصَّدمة أو من الحقيقة ذاتها ...هل تدرك معنى هذا؟ أي في جزءٍ من حياتك ربَّما تتعرض للكثير من الضُّغوط النَّفسيَّة القاتلة، وفي فترةٍ من الفترات في حياتك سيبدأ الاكتئاب يتوغَّل إلى قلبك مثل سرطانٍ مميتٍ ليمحي أيَّ شيءٍ قد جعلك تضحك لأتفه الأمور. ذلك يعني حتماً بأنَّك بدأت باغتيال شخصيَّتك الحقيقيَّة، وبدأت باقتلاع جذورك التي نشأت منها. بعدها لن تعيش كما تريد أو بمعنى فلسفيّ أدق...لن تعيش لشيءٍ حلمت به لأنَّك ستفقد ذاتك الحقيقيَّة، أي ترمي روحك في مهبِّ الرِّيح وتكتسب مكانها عدَّة أرواحٍ مزيفةٍ كلَّ يومٍ تلبس إحداها.

عزيزي القارئ .....

ما أردت قوله أنا لوريتا:

عشْ لتلك الثَّانية التي تمضي فقط، وادخلْ إلى عالمك الخاصِّ وحارب الخوف الذي يثبِّت قدمك، وعشْ لأجل الله ولأجل نفسك، لأجل ما خلقت لأجله، عشْ الثَّانية بكلِّ تفاصيلها السَّريعة عشْ لتملك اسمك ...فلكلِّ امرئٍ من اسمه نصيبٌ).

مالم يكن في الحسبان

يوسف

جاء أبي إلى غرفتي مساءً، ورأى الإنجيل على طاولتي نظر إليه ثمَّ نظر إليَّ وقال لي بهدوءٍ:

- لماذا تقرأ الإنجيل يا بني؟

لم أعرف بما أجيب فقلت: لأزداد ثقافةً فقط.

- أتمنَّى ذلك يا بني ولكن أريدك أن تعلم ما قاله تعالى في كتابه العزيز.

- أجل أجل أعلم أنَّه قال بعد بسم الله الرَّحمن الرَّحيم:

(لن ترضى عنك اليهود ولا النَّصارى حتَّى تتَّبع ملّتهم) صحيح؟

ابتسم وقال:

- الآن اطمأنَّ قلبي.

- حسناً ولماذا نقرأ فقط ما تريد أنت؟

اشتعلت عيناه وقال:

- ما بك يا يوسف لماذا تدافع عنهم؟

- أنا لا أدافع لكن هل تدري كم مرةً أفطرت عند صديقي كرم المسيحي في رمضان؟ لا لا تدري لأنّي لم أخبرك لأنّي أعلم أنَّك لن تتقبَّل الفكرة أجل يا أبي والآن لو قلت لك أنّي أحبُّ فتاةً مسيحيَّةً هل ستمنعني أم ستقتلني؟

(احمرَّ وجهه وكأنَّ عروقه ستنفجر).

- هل أنت مدرك معنى أن يحبَّ شابٌ مسلمٌ فتاةً مسيحيَّةً، لا لست أنا من سيقتلك بل هم، سيحكمون عليها بالموت قبل أن تفكِّر فقط في تغيير دينها.

- لكني لا أريد أن تغيّره أصلاً.

- وأطفالك من سيعتني بهم؟

- أطفالي سأخبرهم بأنَّ الله خالق كلّ الأديان، سأربّيهم على يكونوا مسلمين وعلى أن يحبُّوا النَّصارى، لأنَّهم مثلنا يا أبي.

- اسمع يا يوسف، أنت دخلت طريقاً ستخرج منه مهزوماً، فلا تفكِّر بأن تكمله هذه نصيحتي لك يا ولدي.

- سأكمله يا أبي وسأنتصر هل تعرف لماذا؟

- لا يهمني أن أعرف ولكنّي أتمنَّى لك التَّوفيق.

هدأت بعد عدة دقائق من الصَّمت وكان أبي ينظر إلى الأرض، وكأنَّه يسترجع ذكرى قديمةً دفنها في صدره.

- أنا آسفٌ يا أبي لا أقصد أن أزعجك بكلامي.

ضرب كتفي ضربةً خفيفةً، وبابتسامةٍ مليئةٍ بالذِّكريات قائلاً:

- هذا الحبُّ يا يوسف ليس لعاقلٍ مثلك، لديك الكثير لتخسره.

صمتت لوهلةٍ، شعرت بعينيه التي تخبّئ شيئاً، لا يريد لأحدٍ أن يعرفه

- أبي هل أحببت أحداً قبل أمي؟

هزَّ برأسه بالإيجابيَّة وقال:

- أحببت فتاةً مسيحيَّةً أيضاً، واتفقنا على الهرب والزَّواج في بلدٍ أجنبيٍّ لكن.....

- لكن ماذا؟

لم ينطق بحرفٍ بعدها قام عن السَّرير وخرج، ثمَّ ماذا يا أبي تركني في بحرٍ من الاستنتاجات وبحرٍ من الأسئلة، لكن من تلك السّيّدة ..هل قُتلتْ تحت مسمّى الدِّين أم بقيت ذكرى في ذهن أبي تخلد في ذكراه صباح مساء، أخذت نفساً عميقاً لأخرج أفكاراً لا جدوى لي من الهروب منها، وما أصعب تلك المسألة القلب والعقل ضدَّ بعضهما ولكنّي أعلم جيّداً من فاز أعلم جيّداً أنَّ هناك خاسراً، ولا يوجد فائزٌ بيننا يا لوريتا لكن ليتني أستطيع أن أعود بالتَّاريخ إلى ذلك المقهى، ليتني لم أطل النَّظر إليك صورتك انطبعت في ذهني وعينيك أصبحتا الطريق الذي أسير عليه في دمشق. أريد العودة إلى الماضي لأجلك، لكيلا يُرهق قلبك مثلي، لغة العيون لغتنا يا لوريتا عندما يكون الو اقع ضدَّنا فما لنا سوى التكلُّم بالعيون. هل فعلاً وقعت؟ هل أحببتك يا لوريتا؟

وضعت كفّي على وجهي، وأرجعت رأسي إلى الخلف، نظرت إلى الإنجيل بطرف عيني أمسكته بيدي، شعرت بالحبّ أكثر له لأنّي أعلم تماماً أنّي سأجد الجواب على كل أسئلتي، وأعلم تماماً أنَّه مثل القرآن الكريم، فيه تاريخٌ مشرّفٌ لكلّ الأجيال القادمة، وفيه أحكامٌ شرعيَّةٌ تُقاضي الظَّالم وتُنصِف المظلوم. ما إن أريد أن أفتحه حتَّى يرنّ هاتفي قلبي يخفق بشدةٍ وعيناي اتسعتا من الفرحة لوريتا تتَّصل بي:

- مرحباً يوسف كيف حالك؟

- بخيرٍ و أنت؟

كان صوتها متعباً وناعساً وهادئاً، لا لم يكن مثل صوتها في وقت الظَّهيرة، كان مثل عزف العود الحزين، منطفئٌ صوتها وخافتٌ ...يرتجف من أوصاله الدَّافئة.

- بخيرٍ أردت الاطمئنان عليك، وأن أقول لك شيئاً يضحكني كلَّما تذكَّرته.

- هيَّا أخبريني أيَتها المتعبة النَّاعسة.

- لا تستهزئ بي فأنا حقاً متعبةٌ.

- حسناً أعتذرهيا أخبريني من الذي يُضحِك وجنتاك غيري؟

صمتتْ لبرهةٍ وعرفت أنَّ ابتسامة الخجل قد تربَّعت على وجهها يا الله ما أجمل تلك الصُّورة التي كلَّما تذكَّرتها ابتسمت، كيف يغيب وجهك عنّي يا لوريتا علِّميني كيف أتعلَّم وصفك أكثر؟ هيَّا أخبريني

- حسناً لكن لا تسخر منّي لكيلا أنسى، أوه نسيت لا لا تذكَّرت اسمعْ اليوم هل تذكرعندما سألتنا تلك العجوزعن الطريق إلى باب توما ؟

- أجل ما بها؟

- هذه خالتي.

(وضحكت بعفويةٍ لم أرها بها من قبل، أو بالأصحّ كانت ضحكتها رفيقة دربي كلَّ تلك السِّنين التي مرت على هذه الذِّكريات، ألمْ أقل لك علِّميني كيف يغيب وجهك؟)

- حقاً هذه خالتك؟

- أجل لكنَّها لم تذكرني لأنَّها مصابة بالزَّهايمر، والحمد لله أنَّها لم تذكرني لأنَّها كانت ستفتح تحقيقاً طويلاً من هذا الشَّاب ووو

- ماذا كنتِ ستجيبينها؟ من هذا الشَّاب؟ قولي ما يقوله عقلك؟

(صمتت كعادتها عنما تريد أن تقول شيئاً صادقاً وقالت):

- هذا الشَّاب الذي سيقتلني يوماً.

كانت تلك الكلمات كافية لأن تجعلني أصمت مثلها وأن أقبِّل الهاتف، أيضاً لا بل أن أقولها لها مدلّلتي الصَّغيرة، وبأنّي لم أعرف الحبَّ سوى بين يديها وكلّ النِّساء قبلها كُنَّ غباراً وحبراً على الورق وعندما طال صمتنا قطعته بحماسها قائلةً:

- آه صحيح يا يوسف غداً عرس ابنة عمّي ولم أقرّر ماذا سألبس.
- حسنا دعيني أساعدك كم فستان لديك بشرط أن يكون محتشماً.

(ضحكت بصوتٍ مرتفعٍ وقالت):

- ها قد بدأنا التَّحكم والسَّيطرة
- لا يا ابنتي هذه الغيرة، كيف لي أن أحتمل أن ينظر إليك أحدٌ ما؟
- وينظر لا يهمّني أحدٌ سواك.

قد سجَّلت هذه الجملة على ورقةٍ صغيرةٍ وبالتَّاريخ والسَّاعة، لوريتا أسقطت الخوف منّي يومها. كم كانت تعنيني من جملٍ ومن مشاعر صادقةٍ.

- حسنا إذاً كم فستاناً محتشماً لديك؟
- ثلاثةٌ وألوانهم أوَّلهم أبيض طويل إلى حدِّ الكاحل وبلا أكمامٍ

أمَّا الثَّاني فلونه أسود لأسفل الرُّكبة بقليلٍ وله زخرفاتٌ صفراءُ،

أمَّا الثَّالث فلونه أزرق، ولكنَّه أجمل فستانٍ لدي فهو طويلٌ إلى حدِّ الكاحل و أكمامه مطرَّزةٌ.

- حسناً وماذا اخترت؟
- أنت قل لي ماذا أعجبك؟
- الأزرق أرى أنَّه مناسبٌ.
- و أنا أيضاً أراه جميلاً جداً حسناً سأرتديه و أنت ماذا لديك غداً؟
- ماذا لدي؟ (سألت نفسي من الدَّاخل وأجبتها بسرّي لم يعد لي سواك وكلُّ الأشياء التي كانت قبلك كانت مصدر تعاستي، أمَّا أنت يا طفلتي أشيائي الجميلة وحبٌّ لم أشعر به من قبل). وقلت:
- لا شيء سوى العمل ورؤية النَّاس المتعبة.

- يوسف ماذا تعلَّمت منهم؟ أقصد يوميَّاً ترى الموت أليس كذلك؟ إذاً ماهي الحياة بالنسبة لك؟

- أن أترك حياتي لذلك الذي وهبني إيَّاها، وأن أسير إليه بكلِّ صدقٍ لأنَّه يريد أن يرجعني إليه بالقوة و أنا تسرقني الحياة

يا لوريتا تسرقني بكلِّ ما تحمله الكلمة من معانٍ مدفونةٍ بداخلها.

- هل الله موجود يا يوسف؟ (قالت تلك الكلمات بخوفٍ شديدٍ)

- دعيني أسألك سؤالاً و أنت ستدركين إجابته لوحدك إن خرجت الكرة الأرضيَّة عن مسارها الطبيعي، وطارت في الفضاء ماذا سيحصل؟

أجابت باستغراب:

- سنموت جميعاً ومباشرةً بسبب التَّجمد في لحظاتٍ، ما دخل سؤالي بهذا السؤال؟

- هل تدركين أنَّ الكون منظمٌ بدقَّةٍ بالغةٍ؟

- لكن ليس بالضرورة أن يكون الله بحد ذاته!!

- من إذاً؟

صمتت لأنَّها لا تعرف الإجابة

- حسناً سأسرد عليك نصَّاً كتبه الأستاذ مصطفى محمود بكتابه حوار مع صديقي الملحد:

(صديقي رجلٌ يحبُّ الجدل ويهوى الكلام وهو يعتقد أنَّنا نحن المؤمنون السُّذج نقتات بالأوهام ونضحك على أنفسنا بالجنَّة وحور لعين وتفوتون ملذات الدنيا ومفاتنها أنتم تقولون أنَّ الله موجودٌ..

، وعمدة براهينكم قانون السَّببيَّة وهو نصَّ على أنَّ لكلِّ صنعةٍ صانعٌ ولكلِّ خلقٍ خالقٌ ولكلِّ وجودٍ موجدٌ، والنَّسيج يدلّ على النَّساج

والرَّسم على الرَّسام والنَّقش على النَّقاش والكون بهذا المنطق أبلغ دليلٍ على الإله القدير الذي خلقه.

صدقنا وآمنا بهذا الخالق، ألا يحق لنا بنفس المنطق أن نسأل: ومن خلق الخالق؟ من خلق الله الذي تحدثوننا عنه؟ ألا تقودنا نفس استدلالاتكم إلى هذا؟ وتبعا لنفس قانون السَّببيَّة، ما رأيكم في هذا المطب دام فضلكم؟ ونحن نقول له: سؤالك فاسد، ولا مطبَّ ولا حاجة فأنت تسلم بأن خالق ثمَّ تقول من خلقه؟! فتجعل منه خالقاً ومخلوقاً في نفس الجملة وهذا تناقض، والوجه الآخر لفساد السُّؤال أنك تتصور خضوع الخالق لقوانين مخلوقاته، فالسَّببيَّة قانوننا نحن أبناء الزَّمان والمكان.

والله الذي خلق الزَّمان والمكان هو بالضّرورة فوق الزَّمان والمكان ولا يصحُّ لنا أن نتصوَّره مقيَّداً بالزَّمان والمكان ولا بقوانين الزَّمان والمكان. والله هو الذي خلق قانون السَّببيَّة فلا يجوز أن نتصوَّره خاضعاً لقانون السَّببيَّة الذي خلقه، وأنت بهذه السَّفسطة أشبه بالعرائس التي تتحرَّك بزمبلك وتتصوَّر أن الإنسان الذي صنعها لابد هو الآخر يتحرك بزمبلك، فإذا قلنا لها بل هو يتحرَّك من تلقاء نفسه، قالت: مستحيل أن يتحرك شيءٌ من تلقاء نفسه، إنّي أرى في عالمي كلَّ شيءٍ يتحرك بزمبلك، وأنت بالمثل لا تتصوَّر أن الله موجود بذاته بدون موجدٍ، لمجرد أنَّك ترى كلَّ شيءٍ حولك في حاجة إلى موجد

- هذا النص يخفي بداخله آلاف القيم الاخلاقيَّة والفطرة الإنسانيَّة
- الأخلاقية؟

- عندما نعرف مقدار الله في هذا الكون عندها سنحترم ألفاظنا ونفكر ألف مرَّةٍ قبل أن ننطق حرفاً عليه بدون وعي لما نقول

- وهل برأيك إن لم أتبع دين الإسلام هل سأذهب إلى جهنم وأُحرَق؟

- عزيزتي الله ليس قاتلاً ليعذِّب النَّاس أبداً، انظري حولك هناك آلاف الأديان الوثنيَّة على أرض، نشأت منذ ملايين السِّنين هل كلُّهم ينالون العقاب؟ الأديان كثيرة جداً، ولكن هناك خالقٌ واحدٌ يرتِّب هذا الكون، هناك خالقٌ واحدٌ يحبُّني ويحبُّك ويغفر لي ويغفر لك، وأنا في الحقيقة لا أحبُّ الدُّخول إلى عالم الغيبيات ولكنِّي أعلم شيئاً واحداً، الله رحيم جداً بنا.

- ما رأيك أن نبتعد عن هذا الحديث الطويل؟

- حسناً (قالت هذه الكلمات بصوتٍ متعبٍ جداً)

- سأسرد عليك قصَّتنا.

- قصَّتنا؟

- أجل

- كان هناك شابٌ لم يبحث عن الحبِّ يوماً، يتجوَّل في الأزقَّة يبحث عن سؤالٍ واحدٍ على ماذا يعيش الإنسان؟ وبينما يتجوَّل وجد قهوته المفضَّلة فجلس فيها بدون وعي أو إدراكٍ لما يجري حوله لم يكن بباله سوى ذلك السُّؤال إلى أن دخلت فتاةٌ بغاية الجمال، قد فطرت قلبه يومها فعلم الجواب!

- وما هو؟

- على الحبِّ يا لوريتا، لأنَّه لولا الحبِّ لما كان هناك بشريّةٌ من الأساس! كانت أكلت بعضها البعض.

صمتت وكأنَّها تريد مني أن أكمل القصَّة، وهي تعرف أنَّها انتهت ولكنَّها تريد مني الكلام فقط، لكي تنام بين أحضان الكلمات الغزليَّة فتابعت قولي سأسرد عليك قصَّة ليلة والذِّئب.

ضحكت وقالت:

- لكنِّي أعرفها.

- لا أنت لم تسمعها من شخصٍ يحبّك.

- حسناً أخبرني بها.

(كان هناك فتاةٌ في غاية الجمال، تلبس معطفاً أحمر قد بلغت سن السَّابعة عشر، كانت تتجوَّل في الغابة بحثاً عن التُّفاح، وكان هناك ذئبٌ بغريزته الحيوانيَّة يبحث عن فريسته لمح تلك الفتاة في غفلةٍ ولكن شعر بشيءٍ غريبٍ يحصل له كلَّما اقترب منها، حتَّى شعر بأوَّل شعورٍ له وهو الحبُّ بدأ يتأمل عينيها وحركاتها العفويَّة قد شاهدها تبتعد وعيناه تلاحقها من بعيدٍ.

وفي اليوم الثَّاني جاءت إلى نفس المكان، تريد أن تقطف التُّفاح وهو كان هناك ينتظرها ليأكلها، ولكن هذا لم يحدث بل حدث به تغيُّرٌ سريعٌ شعر برعشة جسده لأوَّل مرَّةٍ وشعر بأنَّ قلبه ينبض لأوَّل مرَّةٍ وتتَّبعها بعينيه كما العادة.

في اليوم الثَّالث رآها تقترب، وقد عزم على التهامها ولكن ازداد الحبُّ في قلبه، وهذه المرَّة قد تبعها إلى بيتها دون إدراكٍ لما يفعل وخوفه الأكبر كان أن تراه وتخاف منه!

وفي اليوم الرَّابع لم تأتِ، وانتظرها طويلاً ...وشعر بشعوره الثَّاني.

- هل عرفتي ما هو يا ابنتي؟

أجابت وكأنَّ كتلةً من الحبِّ قد خرجت مع كلماتها:

- الاشتياق؟

- صحيح

ومضى اليوم الخامس ولم يرها أيضاً فخطرت في باله فكرةٌ.

- وما هي؟

- أن يلبس زي امرأةٍ ويأخذ التُّفاح إليها بنفسه.

دقَّ الباب وفتحت الفتاة وقالت ببراءةٍ: أهلاً يا خالة أجاب الذِّئب وهو يتأمَّل عينيها:

- هذا التُّفاح يا ابنتي.
- شكراً هل أنت صديقة جدتي؟
- لا ...أقصد نعم نعم.
- شكراً لك.

ذهب وتعلَّم الشيء الثَّالث التَّفكير والتَّحيل، فقد بدأ يتخلَّى عن غريزته الحيوانيَّة. وفي هذا المساء جلس قرب الشَّجرة التي التقى قربها بالفتاة فسمع صوت الشَّجرة تقول له:

- سأجعلك جميلاً وبشريَّاً إن أردت.

فقفز من مكانه وقال حسناً أريد ذلك ...

- أجابت لا هناك شرطٌ واحدٌ.
- ما هو؟
- هناك على الجبل توجد بحيرةٌ صغيرةٌ أريدك أن تذهب إليها
- حسناً وماذا أفعل هناك؟
- اذهب إلى هناك فقط وستعرف كلَّ شيءٍ.

وفعلاً ذهب إلى هناك مباشرةً ولم يصل إلى هناك حتَّى الظَّهيرة. ولمَّا وصل رأى طفلاً يكاد أن يغرق، فقفز إلى البحيرة وسحب الطفل بفكيه ولكن عندما أخرج الطفل، بدأت النَّاس ترميه بالحجارة خوفاً منه، ولكي يبتعد وعندما هرب وعاد إلى الشَّجرة سرد عليها القصَّة، وماذا حصل ولكنَّها لم تجب.

فأصابه اليأس وظنَّ أنَّها مجرَّد أوهامٍ ونام قربها، وكان جائعاً جدَّاً لأنَّه لم يعد يرغب في الافتراس وظنَّ أنَّ نهايته قد اقتربت، ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان.

- ماذا حصل؟

استيقظ على صوت الفتاة ذات الرِّداء الأحمر وهي تسأله:

- هل أنت بخير يا سيدي؟

فقفز مرتعباً منها ومن منظره ولكن عندما نظر إلى يديه رآها أيدٍ بشريَّةٍ وقدميه وجسده فضحكت الفتاة وقالت:

- أعتذر يا سيِّدي ولكنِّي رأيتك متعباً.
- لا لا أنا بخيرٍ.
- لا تبدو متعباً تعال معي لتراك جدَّتي وتعالجك.

وعندما دخل البيت نظر في المرآة ورأى شاباً في غاية الجمال، وهنا فهم السّرَّ الرَّابع

- وما هو؟
- لا شيء يحدث صدفةً بل هي النِّيَّة الصَّادقة فتجمع الكون كلّه ليحوِّله من حيوانٍ مفترسٍ إلى شابٍ مميَّزٍ.
- وماذا حصل بعدها؟
- أنت قولي لي.
- تزوَّجا أريدها نهايةً سعيدةً يا يوسف.
- حسناً تزوَّجا كما تريدين.

ضحكت ضحكة خفيفةً وبدأت بسرد قصَّة أيضاً، وعندما انتهيت بدأنا بالحديث عن الغدِّ ذلك الغد الطويل الذي لا يعلم ما فيه أحدٌ، لم أشعر بأنّي اكتفيت بل أريد أن نتكلَّم حتَّى الغد.

الجزء الثَّالث

أحبُّك

يتنا أنا وأنت جئنا العالم قبل اختراع التلفزيون والسِّينما لنعرف هل هذا حب حقًا أم أننا نتقمص ما نراه ؟"

د. أحمد خالد توفيق

لوريتا

تقف أمام خزانة الملابس، أخرجت ذلك الفستان الذي وعدته أن تلبسه، وضعته على جسدها النَّاعم وتتمايل يميناً ويساراً أمام مرآتها القديمة، ذات اللون الخشبي العتيق مثل غرفتها تماماً، لطالما كانت مولعةً بذلك الأثاث العتيق، ربَّما كان السَّبب هو حبّها للحارات الدِّمشقيَّة القديمة. تنظر إلى نفسها وتبتسم بعد أن تذكَّرت كلمة يوسف، عندما سألته من تلك هي أجمل النساء قال "تلك التي ستقف غداً لترى نفسها أمام المرآة تنظر إلى نفسها وتتذكَّرني" اقتربت من الصُّندوق الخشبيّ الذي تضع فيه أساورها الذَّهبيَّة، أخذت ذلك الطَّوق الذي ينسدل منه صليبٌ ناعمٌ أهدتها إيَّاه جدَّتها قبل سنتين، في عيد ميلادها وضعت أساورها النَّاعمة على معصمها، وذهبت إلى العرس ولم تنل سوى الإطراء، ولوصفها بأنَّها أجمل من دخل إلى هذه الصَّالة، ولكن لم تعد تهتمّ. كلُّ النَّاس أصبحوا يوسف لم يكن يشغل تفكيرها سواه. تريد منه إطراءً خفيفاً يجعلها تطير إلى السَّماء، وهذا ما حدث. وصلتها

رسالة نصّيَّة منه تقول "عزيزتي لوريتا لم أعد أملك قلبي منذ أن رأيتك لذلك اعذريني على غبائي الشَّديد، لأنّي أقف أمام الصَّالة على بعد بضعة مترات لأراك هل يمكن أن تخرجي قليلاً"

وها هي تطير وفرحتها تملَّكت شفتيها، خرجت مسرعةً من الصَّالة إليه وجدته يقف مرتكياً على سيَّارة أحد الحضور، يلبس قميصاً أبيض وكلَّما اقتربت أكثر ازدادت ابتسامته العريضة. وقفت أمامه وفتحت ذراعاً مرحبةً به والآخر أمسكت به طرف الفستان وقالت بضحكةٍ بريئةٍ لا تخلو من الخبث:

- " ما رأيك؟ "

لم يجب بل كانت عيناه اللتان تتكلمان، ابتسم وتلعثم لسانه لم يعد يملك كلاماً يصف ما ينطق على اللسان.

- ما بك لا تجب؟

- أحبُّك.

اشتعلت وجنتاها خجلاً واحمراراً، و ابتسمت شفتاها تلك الابتسامة التي لا يمكن أن تختبئ، ظلا صامتين لوهلةٍ حتَّى قطع الصَّمت بكلمةٍ جعلتها تضحك من قلبها، بعد أن عقد حاجبيه وأمال رأسه ناظراً إلى عينيها حيث قال:

- " أشعر الغيرة عليكِ حتَّى من النِّساء أليس هذا غباءً؟ "

هي مازالت تنظر إلى الأرض لم تستفق من الصَّدمة بعد. وضع يده أسفل ذقنها، ورفع رأسها لتنظر إليه، وأطال النَّظر طويلاً اقترب منها ببطءٍ شديدٍ، وأخذها بين ذراعيه وكأنَّها شيءٌ منه، وكأنَّه تذوَّق أنَّ حواء من ضلع آدم. وكأنَّ العالم لم يكن موجوداً من الأساس.

ثوان معدودة كانت قد قلبت الدُّنيا رأساً على عقبٍ، لم يكن يعلم أنَّ العناق سرٌ خفيٌّ، لم يكن يدرك أنَّ الأنثى كلّ ما تحتاجه هو عناقٌ صادقٌ لكي تطير بقلبها إلى عروش السَّماء. قبلةٌ ناعمةٌ قويَّةٌ هي كتلةٌ من شجن طير أبي الحناء. ابتعدَ عنها ببطءٍ وقال:

- هيَّا لقد تأخَّرتِ اذهبي إلى الحفل.

هزَّت رأسها ببطءٍ، والذُّهول يتجوَّل في عينيها. جلست على الكرسي تحاول فهم ما حصل، وتقول في سرِّها لم يقترب منِّي أحدٌ من قبل بهذا القدر، لماذا لم أمنعك يا يوسف لماذا لم أستطع الحراك بين يديك، حتَّى قاطعها صوت أمِّها، وهي تقول بنبرة غضبٍ:

- ماذا كان يفعل هذا الطبيب هنا؟

لم تكذب على أمِّها أبداً من قبل لذلك شعرت بارتباكٍ شديدٍ وقالت بتأنٍ:

- لا شيء يا أمِّي جاء للاطمئنان عليَّ فقط.

- جاء للاطمئنان عليك؟ لماذا كنتِ بين ذراعيه؟ سنتكلَّم في المنزل وسنرى ما القصَّة؟

شعرتْ بالخوف الشَّديد لأنَّها تعلم إذا عرف والدها بهذا الأمر فسيحاول أن يمنعها، من رؤيته حتَّى لو كلَّفه الأمر قتلها، وعمها لن ينتظر حتَّى سماعها لينهال عليها بالضَّرب ...

عندما عادتا إلى البيت، ركضت لوريتا إلى غرفتها تنتظر أمَّها وهي لم تكن تملك التَّبريرات الكافية ليأتي إلى الصَّالة، وفي الأساس كيف عرف العنوان، إذا لم تخبره هي؟ آلاف الأسئلة في رأسها والخوف يسيطر عليها ولكن عادت تبتسم تذكَّرت يوسف واعتر افه لها شعرت بأنَّ قلبها لم يكن لها بل له، شعرت بالرَّعشة في جسدها، وهي غارقةٌ في التَّفكير طرقت أمُّها

الباب، ودخلت لكن لم تكن تبدو عليها ملامح الغضب جلست بقربها أخذت نفساً عميقاً، وقالت.

- أخبريني يا ابنتي ماذا يحصل بينكما فأنا أمك التي تحمل سرَّك.

صمتت لوريتا لثوانٍ ثمَّ قالت:

- ألن تغضبي مني؟

ابتسمت أمُّها وقالت: لا لن أغضب.

***

جولييت

بعد أن خرجت لوريتا من الصَّالة مسرعةً، بعد أن وصلتها رسالةٌ إلى هاتفها، شعرت بأنَّ هناك أمراً غريباً كانت فرحةً و ابتسامتها لا تكذب كان الحبُّ قد تملَّك قلبها، خرجت وراءها رأيتهما يتحدَّثان وبعدها رأيتها ترتمي بين ذراعيه، تأكَّدت أنَّها غارقةٌ به وهو أيضاً

لم أكنْ أعلم ماذا أفعل لقد وقعت في النَّار حتماً قلب ابنتي و ابنتي، لم أكن أفكِّر في شيءٍ سوى كيف أمنعها منه، كيف أخبرها بأنَّ والدها سيقتلها إن علم بالأمر، دخلت إلى غرفتها لكنّي لم أكن أملك سوى سؤالاً واحداً، لماذا هو؟

عندما سألتها عنه أجابت وعيناها تطيران في السَّماء:

"أخبرني بأنَّه يحبُّني يا أمي " قالتها وعيناها تضحكان وارتمت في حضني بعدها يا الله ماذا أفعل؟ ساعدني أرجوك، ساعدني كيلا تقع ابنتي في نارٍ ستحرق كل شيءٍ، كيف أقول لها بأنَّني أحببت مسلماً في صغري؟ أبعدتها عنّي وقلت بلهجةٍ حادَّةٍ:

- يجب أن توقفي هذا الحبَّ يا لوريتا هو ليس منَّا وإن علم والدك سيزوّجك لأوّل رجلٍ يطرق بابنا.

- لا فالإنجيل لا يحرّم زواجي من يوسف!!

- اصمتي ولا تتفوَّهي بكلامٍ لا تفهميه.

رأيت الدَّمعة تمشي رويداً رويداً على خدِّها النَّاعم، ونظرتها تلك التي لم تتغيَّر منذ طفولتها فلم أستطع أن أقسو عليها أكثر.

- أرجوك يا ابنتي لا تكملي لأنَّ النِّهاية ستكون وخيمةً وقاسيةً عليكِ. أرجوكِ أن تعي ما أقول والدك وعمّك لن يرحماكِ.

- حسناً سأبتعد عنه (قالت هذا وعيناها قد غرقتا بالدُّموع لا بل كأنَّ خيطاً من النَّدى يتدلَّى على خديها).

بعد أن صمتت قليلاً قالت بصوتٍ متقطِّعٍ:

- لكنَّ يوسف يحبُّ الدِّين المسيحي يا أمي.

- أعلم أنَّه يحبُّه ونحن نحبُّهم يا ابنتي ولكن الحبَّ لن يدوم طويلاً ستبدأ الاختلافات تظهر مع الوقت ستكبرين فجأةً وستعلمين ما أقول.

- حسناً لن أراه مرَّةً أخرى أعدك بذلك.

الدُّنيا فانيةٌ

بعد سنتين:

يوسف

هذه الدُّنيا فانيةٌ كانت تلك كلمات الحاجة عطفية ذات التِّسعين سنة أو بالحقيقة هي لا تعرف عمرها الحقيقي، ولكنَّها تقول عمرها في التِّسعين مع ابتسامة مثل ابتسامة الصَّالحين، وجهها من نورٍ وعيناها بالكاد تبصر بهما التقيت بها أوَّل مرَّةٍ عندما كانت تحمل كيساً فيه أشياء لم يكن بالثقيل، لكنَّ العمر قد أرهق جسدها رأيتها البارحة تمشي بضعة أمتارٍ ثمَّ تضع الكيس على الأرض لتستريح، ذهبت لمساعدتها واستقبلتني بعينين ناعستين و ابتسامةٍ مطمئنَّةٍ:

- دعيني أُساعدك يا أمِّي.

ابتسمت و أبصرت نحوي بصعوبةٍ وقالت:

- فيك الخير يا ولدي.

ابتسمت في وجهها في المقابل وأخذت الكيس من يدها وسألتها:

- أين تسكنين يا أمي؟
- في هذا الشَّارع قرب المستوصف.
- آه عرفته.

كانت منحنية الظَّهر، قد أكل الدَّهر من جسدها آلاف الأحلام والأمنيات.

- كم عمرك يا أمّي.

ضحكت ونظرت إليَّ وقالت:

- والله يا ولدي لا أدري فلم أعد أحسب السِّنين من بعدما توفي سامي.

- من سامي؟

- زوجي حبُّ العمر، أواه يا سامي كم مضى من العمر في غيابك

- أطال الله عمرك يا أمّي

- طال كثيراً يا ولدي ربَّما أنا في التِّسعين أو المئة، هذه الدُّنيا فانيةٌ هذه الدُّنيا فانية، فو الله لا أذكر من حياتي سوى أركان الإسلام وكيف أصلِّي وزوجي سامي وكأنَّه اليوم قد مات.

- منذ متى قد توفاه الله؟

- أووووه (أشارت بعكَّازها نحو شجرةٍ قد بلغ عمرها الثلاثين)

منذ أن كانت هذه الشَّجرة صغيرةً.

نظرتُ إلى تجاعيد عينيها، كم من الأيَّام مضتْ حتَّى تشيخ بنا السِّنين كيف كنتِ في شبابك يا حجَّة؟ هزَّت برأسها بإيجابيَّة وظلَّت تردّد طوال الطَّريق تلك الكلمات "هذه الدُّنيا فانيةٌ يا ولدي".

وظلَّت صورة لوريتا التي اختفت من عالمي فجاءةً، لم أعد أراها في الجامعة، وهاتفها مغلقٌ بحثت عنها طوال تلك الفترة، فلم أجد لها دليلاً ظننت أنَّ نسيانك سهلٌ يا عزيزتي، لكن كالعادة دائماً ما يخطئ قلبي الاختيار.

- ها قد وصلنا يا أمّي.

- أجل أجل شكراً لك يا ولدي.

- العفو يا حجَّة.

- الله يرضى عليك يا بُني.

ومضيت ومضى معي شهرٌ آخر شهرٌ مليءٌ بالتَّفكير، مليءٌ بالتَّناسي ولكن كانت دعوة تلك الحجَّة صائبةً، وكأنَّ الله قد أرسلها لي وليس العكس.

في إحدى زياراتي لمكتبةٍ في حارة اليهود، لفت نظري عنوان أحد الرّوايات بعنوان " قدري أن تبقى عطراً على قميصي" ربَّما العنوان كان عادياً، ولكنّي تذكَّرتك وتذكَّرت رائحتك عندما عانقت كلَّ شيءٍ فيك تلك الغمرة التي أتخيَّلها كلَّ مساءٍ قبل أن أنام، وعهد ربِّي أنّي أردتك فراشةً تزيَّن بيتي فما لي نصيبٌ بك يا قمري، ألقيت نظرةً على الكاتب لم أتمالك نفسي حتَّى فتحتُ أوَّل صفحةٍ من الرَّواية.

الإهداء

إلى ذلك البعيد الذي رسمني في غفلةٍ منّي أعتذر عن غيابي، وأعتذر عن شوقٍ ليس من حقي اشتياقه، وليس لي خيراً منك ولكنَّها الدُّنيا"

أجل هي لم أصدِّق عينيي لوريتا هي أنت يا قمري الحزين، ذهبت مباشرةً إلى صاحب المكتبة وسألته عنك، قال لا يعرف عنك شيئاً والرّواية لم تُطبعْ عنده أساساً، اشتريت الكتاب وذهبت إلى البيت مباشرةً كنت أعلم تماماً أنّي سأجدك في أوراقٍ تقدِّسينها.

كان الكتاب عبارة عن خمس رسائل قصيرة عندما عدت بدأت أقرأ:

رسائل

الرسالة الأولى

2015/11/11

هذا التَّاريخ بعد آخر لقاءٍ لنا أي بعد شهرٍ واحدٍ:

" الأشياء الجميلة لا تدوم، وكلُّنا نعرف ذلك حتماً ربَّما يكون الصِّراع هو الطبيعة أو النَّاس أو المرض النَّفسي، ولكن لم أتوقَّع أن يكون الدِّين الذي نؤمن به عقبة الطريق، ولا أقصد الإلحاد بل على العكس سأسأل أسئلةً لم يجرؤْ أحدٌ على سؤالها من قبل، وإن كنت خائفاً أو بدأت تلعن سلالتي فأرجوك لا تكمل القراءة.

أمَّا بعد...

أكتب إلى نفسي التي خرجت من أرضها، وذهبت إلى أرض الحبيب نحن في مفترق الطَّريق، نحن عو اقب الأرض يا يوسف ونحن الشَّتات، نحن القدر الذي رسمناه سويّاً، ولكن ما هو القدر يا عزيزي؟ لماذا لم نستطع تفسيره إلى الآن؟ أكتب إليك أنتَ أيُّها الشَّخص الوهمي الذي التقيته على عتبة الطَّريق، وأعلم جيّداً أنَّ يوماً ما ستقرأ ما كتبت، وصدِّقني لا يهمني كم سيمضي من الغياب ولكنّي أنتظر ذلك اليوم الذي ستبحث عنّي به بالعقل وليس بالعاطفة، ولكني لا أستطيع أن أتكلم بالعقل معك وهذه مشكلتي أنا أراقبُ الطيورَ كيف تطير بلا وعي، فأراقبها ببهجةٍ عارمةٍ، لا أفسِّر لماذا تطير!!! بل أفرح فقط، كنت عكسك تماماً، أمَّا أنت فتحاول تفسير الأشياء التي تغطَّت بالسَّواد وتحاول فهم ما تحمله الحياة لذلك فإنني تعبت من دونك، قد أرهقتني العاطفة التي

أحملها على ظهري طوال الأيَّام المعتمة، هل تعلم كيف تكون الأيَّام و أنت بلا أحدٍ، وحيداً في غرفتك تر اقب عقارب السَّاعة لا أكثر، تنتظر موتك المحتوم البطيء، هل قرأت الإنجيل يا يوسف؟ هل بحثت عن الحلِّ؟ أعلم أنَّك بحثت عني كثيراً وأعلم أنَّك مثلي الآن لا تعلم متى تلقاني وألقاك، أعلم أنَّ هناك الكثير من الأسئلة التي تخطر في ذهنك في تلك المدَّة التي غبتها قصراً عنك عن أيَّامٍ لا يعلم مرارتها سوى الله يا يوسف، قد ملَّ شباك غرفتي منّي ومن انتظارك، ملَّت الأيَّام منّي وملَّت تلك الحمامة التي صنعت عشَّها على الشُّباك، لم تعد تأتي أبداً، ربَّما هاجرت مثلي، ولم يعد لها أثرٌ.

هل تعلم يا عزيزي كيف يكون القدر؟ كيف يضع لمسته الخاصَّة؟

عندما عدنا من الصَّالة كانت أمِّي تر اقبني وعرفت كلَّ شيءٍ، لكنَّها لم تعِّق أبداً لكن أعطتني كتاباً، قد كُتبَ بخطِّ يدها سنة ألفٍ وتسعمائةٍ وخمس وتسعين، أعطتني إيَّاه وقالت اقرئي هذا و افعلي ما تشائين

هل تعلم من كان البطل في هذه الرِّو اية؟

والدك وأمِّي سوياً، قد أحبَّها والدك يا يوسف وهي أيضاً أحبَّته، ولكن جدِّي قد غيَّر مسار القصَّة تماماً، وزوَّجها لأوَّل رجلٍ دقَّ باب البيت وكان أبي. هل تؤمن بتناسخ الأرواح؟ هل تؤمن بأنَّ الزَّمان والوقت ليسا موجودين أصلاً، وبأنَّ العالم ليس سوى تكراراً للأحداث القديمة يكاد عقلي أن يُجنَّ مثلك. إنّي أختنق يا يوسف أختنق، أريد أن أراك الآن أريد أن تنتشل ما تبقى منّي وتبقى قربي وأن أموت بين يديك، لا بل أريد أن أعيش بين يديك لكن داخلنا مرآة تعكس ما يدور فيه، إلى خارجه ربَّما كآبتي تريدني أن أموت، ولكنِّي لا أريد ذلك ولكنِّي متعبةٌ يا يوسف مستسلمةٌ.

دائماً ما كان ذلك السُّؤال يراود كلانا إلى متى؟

وكان جوابك الصَّمت أو إجابةً لم أفهمها حينها، إلى أن يشاء الله كنت أنظر إليك باستخفافٍ، كيف لا تدري يا يوسف أنت رجلٌ، كانت نظراتك التي أجابتني حينها، شعرت بأنَّك رجلٌ مقيدٌ بالسَّلاسل، تائهٌ وخائفٌ أحبُّك صدِّقني أريد أن تتذكَّر هذا دائماً، لا أعلم إن كنت سأكمل الكتابة إليك، لكنِّي على يقينٍ بأنِّي لم أكتب حرفاً، وأنا سعيدةٌ لذلك ابحثْ عنِّي بعقلك لا بقلبك، ابحثْ عنِّي ستجدني على شباكٍ خشبيٍّ قديمٍ.

المخلصة لك لوريتا

الرِّسالة الثَّانية

2016/9/1

ها هو الليل يسدل هيبته والأضواء الصَّفراء تغطّي شارعنا القديم، أصوات المارَّة القلائل وضحكة النِّساء وكعوبهنَّ التي تضرب على الأرض قد تكسر السُّكون، أحسدهنَّ يا يوسف و أتمنَّى لو أستطيع أن أكون مثلهنَّ أن أضحك ولكن أن تكون أنت بجواري ممسكاً يدي، لا تطفئ لمعة عينيك عندما تنظر إليّ أرجوك، ربَّما لم أستطع إخبارك كم أحببتها، كم أتوق إلى رؤيتها الآن، أين أنت وماذا تفعل وكيف تسير أمور عملك؟ هل أنت بخير؟ هل أنت هنا أم أنَّك ما زلت هناك في دمشق، أسئلتي غبيةٌ أعلم هذا.

آه يا يوسف لو رأيت عيني أمِّي وهي تعطيني الكتاب الذي كتبته عن والدك، وكيف التقيا وكأنَّها تقول لي لا يا بنتي لا تحبِّي أرجوكِ.

أمَّا أنا ..فصدَّقت أمِّي وكذَّبت قلبي حينها، ولكن أبي عرف بالأمر سريعاً عندما رأى الكتاب في غرفتي، وحتّى أخفف صوت صراخه على أمِّي وقفت أمامه وقلت أعطتني الكتاب حتَّى لا أقع في نفس الموقف، نظر إليَّ وعيناه ثائرةٌ مستعرةٌ مثل النَّار، لا لم أصدق أنَّه هذا أبي وما هي إلا ساعاتٌ قليلةٌ حتَّى علم بأنِّي أحبُّك بعد استجوابٍ طويلٍ وما هي إلا أيَّامٌ قليلةٌ حتَّى هاجرنا من دمشقَ إلى مدينةٍ أخرى، وبدأت رحلتي بالكتابة إليك. لكن بدا البيت مليئاً بالكراهية والتَّوتر، لقد تغيَّرت حياتي كلّياً، ها صحيح لقد سجَّلت في الجامعة في المدينة الجديدة منذ يومين، بدأت بالتَّعرف على مدينتك أكثر، واختلطت بالمجتمع الإسلامي أكثر حتَّى أنّي زرت جامع خالد بن الوليد، وعلمت أنَّه بعد شهرٍ سيبدأ رمضان لديكم أحببت هذا الدِّين لأنِّي أحبُّك. هل تدرك معنى هذا؟ عندما تصبح مدينةٌ

أو دينٌ لديك شخصاً واحداً، أعلمُ أنَّك تحبُّ ديني أيضاً فقد قرأت الإنجيل أليس كذلك؟

أجبني لأنّي أتحدَّث معك في خيالي كلَّ يومٍ، أتخيَّل ذلك اليوم الذي ستجدني فيه صدفةً، وأرى عينك تلمع مثل عادتها ونمشي في شوارع مدينتك التي تحبّها، حمص الوليد كما كنت تخبرني، إنّي أبتسم الآن لأنّي عدت لأتخيَّل وجهك الجميل وشعرك الأسود الطويل، وعيونك البنية اللون، أحبُّك يا يوسف...تذكَّر هذا جيّداً ...فالموت عندي أسهل من أن أكون في بيت أحدٍ غيرك ... تذكَّرْ هذا واطمئنْ ... أنتظرك إلى الأبد

يا يوسف.. إلى الأبد...

كاتبتك المفضَّلة

لوريتا

الرِّسالة الثَّالثة

2016/2/2

أمّي متعبةٌ جداً يا يوسف منذ أسبوعٍ، وهي ترقد في المستشفى بدأت الأمراض تأكل جسدها، و أبي ر اقدٌ قربها طوال اليوم يشعر بأنَّها تُحتضر ينظر إليها وهي تضع جهاز التَّنفس الاصطناعي نظرة ألمٍ وحزنٍ وخوفٍ من فر اقها، أحتاجك قربي الآن أين أنت؟

يوسف:

أغلقت الكتاب والدِّماء تغلي في عروقي، لا صوتَ لديَّ سوى صوت الحنين، نظرت إلى السَّاعة كانت قد اقتربت من الثَّامنة مساءً جهَّزت أمتعتي وخرجت رأيت أمّي و أبي يجلسان قرب بعضهما ويشاهدان التِّلفاز.

- أبي أنا ذاهب إلى حمص لأرى أصدقائي.

نظرا إلى بعضهما وقال أبي:

- الآن في هذا الوقت؟

أجل. -

هل هناك شيءٌ يا ولدي؟ -

لا يا أبي لا شيء. -

- لا يبدو كذلك، وجهك محمرٌ ماذا هناك؟

اقترب أبي مني وقال قلْ لي ماذا هناك؟

سأخبرك هل لنا أن نتكلَّم لوحدنا قلت هذا في همسٍ.

حسناً تعال. -

دخلنا إلى غرفتي

أبي سأخبرك بشرط ألّا تمنعني من فعل أيّ شيءٍ -

نظر إليّ نظرة خوفٍ ...حسناً قلْ

علمت قصَّة حبِّك مع جولييت -

ماذا؟ ماذا علمت؟-

أنا أحبُّ ابنتها يا أبي ولن أتخلَّى عنها. -

- هل جننت؟

أجل وسأجنُّ أكثر إن لم أجدها. -

أخذ نفساً طويلاً ...

- اذهبْ إلى حيثما تريد لكن ما شأن حمص هم يقطنون هنا؟

- والدها علم بالأمر وأخذها إلى هناك

- افهمْ يا بني لن يعطوك إيَّاها أبداً، افهمْ ذلك وإلا ستحلُّ كارثةٌ على رؤوسنا جميعاً.

- لن يحدث شيءٌ أعدك. (قلت هذا و أنا أقبِّل رأسه ويديه)

- حسنا يا ولدي اذهب ر افقتك السلامة.

اتّصلت بصديقي علي ليعطيني سيَّارته، و ابتدأت الرِّحلة التي لم أعلم ماذا سيحصل بها وكيف لي أن أبحث عنها في هذه المدينة الكبيرة.

وصلت إلى هناك في السَّاعة العاشرة والنِّصف تقريباً ولكن المدينة كانت عبارةً عن أنقاضٍ يا لخيبتي بك، يا لحسرتي عليك قد هدَّموا كلَّ شبرٍ فيك، قد تكالب عليك مغول النِّفاق فلم يبقَ فيك حجرٌ ولا بشرٌ،

أخذت أدراجي متَّجهاً إلى الفندق. ما إن رميت جسدي على السَّرير حتّى بدأت بإكمال الرِّسالة:

ابحثْ عنّي يا يوسف في الحارات القديمة، التي لن تخطر على بال أحدٍ في حارة حارب أهلها الجنود الفرنسيين، ومازالت رصاصاتهم في الجدران. ها صحيح لقد تعرَّفت على فتاةٍ تدعى بنان من عائلةٍ مرموقةٍ في حمص، تسكن أمامي مباشرةً وقد أخبرتها عنك، وقلت لها أنَّك ستبحث عنّي يوماً ما وعندما أخبرتها عن كنيتك، قالت إنَّها تعرف عائلتك جيداً هناك صلة قرابةٍ بينكم، هي معي في الجامعة تدرس الهندسة في السَّنة الثَّالثة، أمَّا الآن فأستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه، أجل هذا دعاءٌ إسلاميٌّ لا تستغرب. ابحثْ عنّي يا يوسف فأنا أنتظرك أحبُّك يا قمري.

الرَّسالة الرَّابعة

2016/4/1

ها أنا أقترب منك على أوتار الكمان وعزف النَّاي الحزين، تلك الموسيقا التي تُكتب لا تُسمع، فنُّ الإدراك وفنّ الابتعاد خطيئتنا، التي لا تغتفر، كم من القلوب كُسرت يا يوسف، وكم من ثلوج غطَّت أمسيات الليل مع قلمي الوحيد، لا أشعر أنّي بخيرٍ، أتأمَّل غروب الشَّمس من نافذتي وقلمي يترنَّح بين أصابعي وكأنَّه راقصٌ على أنغام القدر، ما هو القدر يا يوسف؟ قد تعلَّمت هذا السُّؤال منك. هل ستأتي ذات يومٍ وتأخذني كالطفلة التي لم تتعلَّم الخبث يوماً، هل ستغفر لي؟ وهل اشتقت إليَّ؟ ...هل ستأتي؟ هنا السَّماء مكتئبةٌ يا يوسف، تبحث عن شخصين تفرَّقا ولم يجتمعا بعد، هنا أنا بعد غياب أمّي، أنا على سريرها، الكون قد اختلف بعدها، أمّي ماتتْ البارحة يا يوسف. لا وصف لهذا الشُّعور عندما تموت الأم فلا أرضٌ تحتوينا بعدها، لا توجد لدي كلمات أبداً سوى الصُّراخ الصَّامت. أرجوك تعالَ إليّ الآن قبل أن يهطل هذا الليل الطويل، أتخيَّل أنَّك تمرُّ أمام نافذتي وتنظر إليَّ بعينك الشَّغوفة، تنظر طويلاً فقط كلَّما تخيَّلت ذلك الموقف تشبُّ بداخلي ثورةٌ لا بل ثورات العالم أجمع، وبعدها أرتمي على وسادتي البيضاء، لأغرقها بلون الدَّمع المثقَّل بالاشتياق تأتي في بالي خلسةً بين النَّاس فتظهر في عيوني وفي لغتي وفي الشِّفاه النَّاطقة أريد أن أركض إليك، وأرتمي بين ذراعيك وأموت أريد المضي إلى السَّماء التي ترتجف من بردها مثلنا .. هل تأمَّلتها يوماً يا رسامي؟ هل رسمتها قبل أن تنظر إليّ؟ هناك أمّي هل رأيتها البارحة، وهي تطير مثل حمامة الأيك بين غيومها، تفترش زراق غطائها ...أريد الموت لأنَّ أمّي تنتظرني هناك قرب المسيح

الذي فدى العالم بدمه. ربَّما هذا يزعجك عندما أقوله ولكنَّها أمّي هناك هي التي تقرِّر من المخطئ ومن على حقّ، هي تعرف الآن وهي بين يدي الله وحده، أمَّا أنت فتعال الآن بدينك المحمَّدي وبخطاياك وحسناتك التي سجَّلتها ملائكة الأرض والسَّماء، فأنا انتظرت على شباك غرفتي ..انتظرتك كما ينتظر المحكوم بالإعدام قرار الإفراج عنه .. يوسف لا تقرأ الرِّسالة التأَّلية والأخيرة أرجوك. أريد أن نقرأها سويّاً عندما نلتقي ...أحبُّك ..أحبُّك ومع هطول دمعتي أنتظرك، في أمان الله يا قرَّة عيني الحزينة.

المخلصة لك دائماً

لوريتا

الجزء الرّابع

شباكٌ قديمٌ

لا شيء يُعطى على هذه الأرض دون جهدٍ، حتّى الحبّ، أكثر المشاعر طبيعةً وجمالاً.

ليو تولستوي

أغلقت الدَّفتر وعيناي مليئتان بالحسرة والغضب، وفي داخلي صوتٌ يصرخ مثل أنينك ها أنا اقتربت منك، ها أنا على مشارف قلعتك المحصَّنة.

لبست ثيابي وخرجت أتمشَّى في أزقَّة حمص القديمة، كيف أنام وطفلتي حزينةٌ، كيف أنام يا بنتي، أمسك بيدي الكتاب وأعيد قراءة وصفك لحارتك، أمسكت هاتفي كانت السَّاعة الحادية عشر مساءً.

مرحبا كيف حالك يا أبي؟ -

بخيرٍ يا ولدي و أنت؟-

- بخيرٍ ...أبي أريد أن أسألك عن فتاةٍ من أقربائنا تدعى بنان تدرس الهندسة هل عرفتها؟

ما اسم والدها؟ -

لا أعرف. -

- وكيف لي أن أعرف يا ولدي فحمص كلُّها تقرب بعضها.

حسناً يا أبي تصبح على خير. -

جلست على الرَّصيف خائباً، أشعلت السِّيجارة وأخذت أتأمَّل المدينة حولي، فهي هادئةٌ وباردةٌ قاسية الملامح قد طغت الحرب على أرضها حتَّى أرهقتها. تذكَّرت عندما خرجتُ منها وذهبتُ إلى دمشق، وفي لحظة شوقٍ كتبت:

لأنَّك لحظةٌ عابرةٌ، لم أكترث كثيراً، ظننتها أيّاماً قليلةً للغياب. لم أنتبه حينها أنَّها آخر مرَّةٍ أُغلق بها باب البيت، لربَّما كانت ساعات أشهر سنوات.

ومازالت تلك اللحظة لم تمضِ فساعة الحائط متوقفةٌ، لم يدخل البيت سوى نسمات الهواء المحمَّلة بالغبار، كيف حال البيت بعد غيابنا؟ أصواتنا لم تُعِدها جدران البيت المهدمة

كيف حالك في الظلام

لم تشرق من حينها

غرفة المعيشة والأضواء الخافتة ورائحة أرجيلة أبي هل ما تزالُ معلقةً في الجدران والأريكة؟

غرفتنا أنا وأختي وصوت ضحكتنا ليلاً وأحلام طفولتنا وآلامنا المبعثرة في أرجائها هل بقيت هناك صورتنا سويّا؟

حيّينا الصَّغير الذي تغطَّى بحجارة الأبنية المهدَّمة.

الهتافات التي كانت تصدع من شوارع المدينة

الأعمدة التي تغطَّت بصور الشُّهداء

الأرصفة الممزوجة بالدِّماء

الدُّخان الذي تعالى في السَّماء

سكان الحي، كلُّهم عناوين لسنوات الغياب كلُّهم رحلوا وبقيت أنا في شارعٍ فارغٍ. بقيت شارداً أتأمَّل ماذا يحدث لي.

فالليل خانقٌ من دونك من دون أن تبعثري عطرك عليه وأسودٌ داكنٌ كلحن ناي قديمٍ، حزينةٌ هي الحياة عندما يلتهب الفؤاد ويحترق. تخترقه أغنيةٌ عابرةٌ أو سطورٌ خلقت لأملأها باسمك أو صوتك عندما يأتي خلسةً إلى العقل في وسط الضَّوضاء والعمل، حولي الكثير من النَّاس الآن الذين ذهبوا وكانوا هنا قبل سنواتٍ بقيت أرواحهم تجول المكان، قد رأيت جارتي عندما كانت طفلةً تلعب أمامي، ورأيت والدها يستلم الرَّصاصة في صدره العاري، رأيت النَّاس يمشون ليلة العيد وكلٌ منهم شاردٌ يبحث عن أحدٍ. بدأ العرق يتصبَّب من جبهتي. أحلام اليقظة تقتلني يا لوريتا الذِّكريات قاسيةٌ جداً، كيف لحمص أن تفقد صباها هكذا؟ كيف لهذا الصَّرح العظيم جامع الوليد أن يُضرب وتُهدم معالمه .. شردت في كلِّ شيءٍ وفي نفس الوقت فلا أبحث عن شيءٍ بل أتأمَّل، وهذه عادتي يا طفلتي أحبُّ التأمُّل لأصل إلى الهدوء الدَّاخلي لأعرف الإجابة لذلك سألت نفسي ذلك السُّؤال، كيف أحبُّك؟ ولماذا؟ سمعت صوت تدفّق دمي داخل شرياني فتذكَّرتك وتذكَّرت أنَّك تحبينها، نظرت أمامي فوجدت المقعد الذي جلسنا عليه ننتظر الحافلة في دمشق، ألتفتُ شمالاً ويميناً فلم أستطع المضي من دونك!!! ...كلُّ الأزقَّة بها أنت فأين أهرب منك وأعلم بأنِّي أعود إليك في ذات اللحظة.

...عيناك لا تغيبان ...هذه الكلمات قرأتها في روايةٍ منذ زمنٍ لكن اليوم أدركتها وشعرت بنقصها!!! عيناك لا تغيبان يا لوريتا... هكذا تصبح أجمل عندما تكون لك أو هي هكذا كتبت لك

كيف حال يومك اليوم؟

متعبةٌ أعلم، أدور في ذهنك مثل حمامةٍ تطير فوق المسجد الأموي، دمشق الصَّغيرة في عينيك يا لوريتا ...أزمنة الشَّام وأزقَّتها وعصورها وآثارها وقصص الحبِّ التي مرَّت عليها كلُّها تجول في عينيك، وحتَّى رائحة المطر على الأحجار القديمة تخرج من يديك، أمَّا أنا ..على الرَّصيف أكتب لك أراقب ضوء القمر وأراقب نفسي من الدَّاخل

كيف حالك يا أنا؟

هطلت من عيني دمعةٌ لعينةٌ

أعيد السُّؤال ولكن بصوتٍ أعلى وبصراخٍ داخليٍّ قد ينزف قلبي منه

كيف حالك أيُّها الغائب؟

من الغائب يا أنا؟

تجيب نفسي ...أنت.

عُدْ إلى نفسك وراقب من بعيدٍ، انظرْ كيف المسافات تقترب وتبتعد تتمايل يميناً ويساراً وتباغت الظِّل الذي تحتويه

من أنا يا لوريتا من أنا؟

دخلت إلى البيت، أنظر في المرآة، رأيت يديك على كتفي والنَّمش على وجهك يجعلني أشتعل ولا انطفئ إلا بتقبيله.

رأيتك ترتّبي لي قميصي المنسدل على كتفي ثمَّ أملت برأسك المتعب عليه، امتلأت عيناك بالغبار والدُّموع معاً

لا تبتعد، قلتِ تلك الكلمات واختفيت يا لوريتا مثل الوهم إلى الحدِّ الذي لم أفرِّق هل أنا يوسف الواقعي أم يوسف الذي يعيش في حلمٍ وتسكنه أحلام اليقظة.

ما زلت هنا يا لوريتا، أمام المرآة التي تريني الكون داخلي، رميت بجسدي على الفراش وكأنّي أطير من مبنى شاهقٍ لا نهاية له ليقطع حلم اليقظة رنين الهاتف، وأرفع رأسي من على ركبتي وأشعر بالهواء يصفعني ويوقظني إلى و اقعٍ مريرٍ.

- أجل يا أبي.

- اسمعْ يوسف، أمُّك تقول أنَّ لهم أقارب في باب هود ولديهم فتاةٌ وحيدةٌ تدرس الهندسة ولكن لا تعرف اسمها ربَّما تكون هي.

- باب هود؟؟

شعرت بخفقان قلبي، وفرحة لا يمكن وصفها على الورق سألته بسرعةٍ أبي أجبني بسرعةٍ أين تسكن بالضَّبط؟

لماذا يا بني هل هناك شيء؟ -

لا يا أبي لكن أرجوك أجبني الآن. -

في حارة باب هود في حمص القديمة قرب جامع النُّور. -

شكراً شكراً يا أجمل أبٍ في هذه الدُّنيا وداعاً الآن.

أبحث مثل المجانين عن سيَّارة أجرة أوقفته بسرعةٍ. أرجوك بسرعةٍ خذني إلى جامع النُّورسألت السَّائق:

- هل هذه حمص؟

نظر إلي نظرة اندهاشٍ.

هل أنت تائهٌ.-

- لا لكنّي لم أعد أعرفها أبداً.

هل أنت من هنا؟ -

لا أدري إنْ كنت أنتمي إلى هذه المدينة التي اختفت ملامحها أم لا.-

- ستبنى بفضلكم أيُّها الشَّباب، هذه أرضكم أنتم. نحن تعبنا يا بني نحن تعبت أجسادنا ومضى عليها الدَّهر ليرمينا في هذا الشَّقاء.

حسبي الله ونعم الوكيل قال هذا ثمَّ رمى بعدها كلمات مشابهة بصوتٍ خافتٍ. تأمَّلت الأزقَّة المغلقة ...كم كانت هذه الحرب قاسيةً متى ستنتهي يا تُرى؟

لقد وصلنا وأشار بيده إلى قبَّة المسجد وقال: هناك هو. هل ستعود؟

المعذرة ؟-

- هل أنتظرك هنا؟

حسناً لن أتأخَّر عشر دقائق فقط.

خفقان قلبي لا يتوقف، أنظر إلى الأبنية والهواء يلفح رقبتي أمشي على بقعٍ متبقيةٍ من الثَّلج والبخار الصَّاعد من الأرض، ورائحة الأحجار القديمة تعيدني طفلاً يبحث عن أمّه، ألتفتُ إلى الشبابيك في كلِّ الاتجاهات وأراقب الأبواب القديمة، وفي لحظةٍ عابرةٍ أتنقَّل بنظري إلى النَّوافذ وقعت عيني على فتاةٍ تقف عند النَّافذة، ورأسها ينظر إلى اتجاهٍ معاكسٍ لي، وقع قلبي وارتعش صدري وبدون أدنى إدراكٍ صرخت بصوتٍ خافتٍ:

لوريتا !!!

أمالت بنظرها إليّ ببطءٍ وكأنَّها لم تستوعب بعد أنّي أنا يوسف من يقف تحت شبَّاكها، كانت تعصف بعينيها آلاف الكلمات الضَّائعة المتلهّفة للعناق، هذا أنا نعم لقد جئتك من البعيد أيَّتها القريبة من الوريد.

وقفت عند باب بيتها الخشبي، والأضواء الصَّفراء تغطِّي الشَّارع الفارغ وبالرَّغم من أنَّ الجوَّ باردٌ جداً إلَّا أنِّي لا أشعر بصقيع يدي حتَّى أنِّي لم أعد أشعر بالإدراك الذي أوصلني إليها لم أعدْ أشعر سوى بعيني وكأنِّ كلَّ الحواس سافرت إلى البعيد،

وقفت ضريحاً أمامها لا أملك سوى الصَّمت، عيناً بعين وقلباً على قلبٍ على رعشة أرض حمص وثلجها تناغمنا وكأنّنا الرّيح والبرد، كان النَّظر في عينيها أشبه بالانتحار، تلك اللحظة التي من فرحتها تبكي والكون قد توقَّف وعيناها اللتان تجريان في محيط الأرض كان بداخلي آلاف الكلمات لكن أدركت أنَّها مثل القنديل عندما ينطفئ . لا ترى الكلمات مخرجاً لها، فتشعل ثورةً داخلنا،

لم أستطع الكلام يومها

بل ما إن حرَّكت شفتاي لأحاول الكلام، حتَّى ارتمت من عينيها دمعةٌ وهي ارتمت بين ذراعي، ولكن كان الفرق كبيرٌ بين أوَّل عناقٍ وبين هذا، كان هذا يعبِّر عن الكثير من المشاعر التي لا تُحكى، كانت رياحٌ صامتةٌ وعيونٌ راجفةٌ وأصابع يديها تمسك بي بقسوةٍ، أمَّا ذلك العناق كان يعبر عن الكثير من الكلام، كُنا نحتاج هذا البعد لكي نعلم أنَّ الحبَّ لم يكن يوماً بالشِّفاه. قالت بصوتٍ مرتجفٍ وهي تبكي على صدري:

- كنت أعلم أنَّك ستأتي يا يوسف كنت أعلم،ى رجوت الله أن تقرأ ما كتبته لك.

– وجدت الرِّو اية منذ يومين.

و ابتعدت بسرعةٍ عنِّي وقالت:

- هل قرأت آخر رسالةٍ؟

- لا ليس بعد.

جاء صوت والدها من الطَّارق؟ دخلتْ وأغلقتْ الباب بسرعةٍ، سمعت صوتها تقول يبدو أنَّ أحد الأطفال طرق الباب وهرب. وقفت أمام بيتها أنظر إليه، شعرت بأنَّ أحجار هذا البيت القديمة تتكلَّم، بها صوت أنين لوريتا، بها حبٌّ كُتب على الورق، خلف هذه الجدران تمكث من كانت يوماً عندي في المشفى واليوم أنا الذي أقف على بابها أرتعش سمعت صوت فتح النَّافذة ببطءٍ، خرجت وأخرجت رأسها وشعرها يتطاير في الهواء ورمت لي ورقةً وأشارت لي بيدها أن أبتعد ابتعدتُ مسرعاً، و أنا لا أصدق ما حصل، لقد وجدتها والفرحة لا تسعها الأرض ولا السَّماء، أحبس أنفاسي المتسارعة، فتحت الورقة، مكتوب فيها رقم وكلمة خطفت قلبي مثلما تفعل دوماً:

أحبُّكَ

لكنَّها لطالما كانت تحمل الكثير من المعاني المخفيَّة، لن يدركها إلا ذلك الذي أحبَّ حبَّه الأخير و أنصفه و ابتلع الحياة، عندما تدرك معنى أحبك ستنسى كلَّ شيءٍ ماديٍّ وجسديٍّ في هذه الحياة، ستدرك حينها أنَّ الحياة ما هي إلا سرُّ وجودك، وحقيقة مشاعرك الصَّادقة وعليك البحث عن هذا الحبِّ. وهل لك أن تتأمَّل ما هو الأفضل؟

أن تنام في قصرٍ كبيرٍ يعجُّ بالنِّساء العاهرات والمال، وفي لحظةٍ و أنت نائمٌ يزورك شخصٌ لا تعرفه ويقول لك بأنّي صاحب هذا القصر، فتقوم مسرعاً تصرخ عليه وتدافع عمَّا حلمت به طوال حياتك ...وتكتشف بعدها بثانيةٍ واحدةٍ بأنَّ هذا الشَّخص ما هو إلا مرسلٌ أرسل صاحب هذه الأرض بأكملها. تدرك حينها بأنَّ الحياة ليست شيئاً ماديَّاً سيزول بعد أن تسعى إليه كلَّ حياتك وفي لحظة الرَّاحة يذهب كلُّ شيءٍ !!! أدركت الآن بأنَّ الحياة ليست قصراً فارغاً ممتلئاً بكلِّ شيءٍ إلّا منك!!!

أمَّا الحياة الثَّانية أن تنام مرتاح البال، ومعدتك ممتلئةٌ بما أعطاك الله من رزق وتنام في وطنك الذي وجدته دون أن تبحث عنه يوماً. فتراه فاتحاً ذراعيه بعد أن تلقيت ضربات القدر الموجعة، فتراه يحنو عليك، تنظر حولك فلا ترى وجهاً سواه، تراه يساعدك لتبحث عن سرِّ وجودك وتدرك حينها بأنَّ جسدك سيزول يوماً وبأنَّك في الحقيقة شخصٌ سيعيش لحظةَ واحدةَ على أرضٍ عاش عليها مليارات البشر، ولم يبقَ لهم أحدٌ .سرُّ وجودك ستدركه عندما تدرك أنَّ اسمك فقط الذي سيخلد وبأنَّ الجسد فانٍ لا محالة ولكن فكرتك التي تعيش، وتدرك حينما تنظر إلى أثاث بيتك المتواضع بأنَّ وطنك الوحيد بعد عائلتك هو بين يدي حبِّك الحقيقي ومن البديهي أن تكون بعدها زوجتك التي ستربِّي ابنك الذي تريده أفضل منك.

هذه الحياة بكلِّ بساطةٍ مشاعر صادقة وحبٌ حقيقي وسرُّ الوجود.

لوريتا

كلُّ يومٍ أجلس هنا على النَّافذة، أراقب المطر وأنتظر عابراً سيأتي يوماً إليّ، كنت أعلم ذلك. اليوم منذ الصَّباح وفي داخلي شعورٌ بأنَّ يوسف قد اقترب، وكعادتي أفكِّر بهذا اللقاء أين وكيف وماذا سيحصل؟ هل سأبكي مثل الأطفال أمامه أم أنِّي سأتماسك، أتمنَّى أن أعرف أخبارك يا يوسف ولكنَّك اقتربت، شعوري لا يكذب، ها أنا أنظر إلى السَّاعة وقت اقتربت من الحادية عشر أردت الدُّخول لكن لا أدري كيف أفسِّر ذلك الشُّعور، هناك شيءٌ غريبٌ، إحساسي بأنَّ يوسف قد اقترب لا يفارق بالي، لم أستطع الدُّخول لذلك انتظرت كنت غارقةً في الأحلام عن لحظة اللقاء تلك، سمعت صوتاً خافتاً ينطق باسمي، لم أصدِّق من ذلك، ظننت أنِّي بحلمٍ أو جننت، بدون أن أشعر نزلت إليه، لا أصدِّق يوسف أمامي، هل هو أحد أحلام اليقظة التي أراها دائماً أم أنَّك حقيقيٌّ يا يوسف؟ أردت لمسه وأن أرتمي بين يديه أريد أن أخبره بأنِّي أحتاجه الآن... كانت أنفاسه الدَّافئة تضرب برقبتي، شعرت بسرعةٍ بنبضات قلبه. خرجت مسرعةً إلى الغرفة قبل أن يذهب كتبت عليها رقم هاتفي رميتها إليه وكتبت أحبُّك بيدين راجفتين باردتين. وبالفعل ماهي إلا دقائق حتَّى اتَّصل بي، كان هناك الكثير من الكلام لكن ما إن سمعت صوته حتَّى نسيت ذلك التَّعب الذي مضى، نسيت كلَّ شيءٍ، ولم أنسَ أنِّي أحبُّه، لا توجد كلمات خرجت من فمي سوى اشتقت إليك كثيراً يا يوسف و أبكي من فرط اشتياقي أمَّا هو فصامتٌ هادئٌ أسمع صوت أنفاسه بقربي، وكأنَّه يجلس بجواري يراقبني بصمتٍ، وفي الحقيقة كلانا كنَّا صامتين غارقين في التَّفكير بما حصل، لا صوت سوى صوت أنيني بين يديه ....

ماذا بعد الآن

يوسف

وذرفت الدَّموع من عينيها ومضت في نجواها: لقد أحببته ولا أزال أحبّه، بل إنَّ حبّي له تضاعف الآن.

ليو تولستوي

في محل الهدايا

أتنقَّل بين السَّاعات والعطورات والإكسسوار ولا أجد شيئاً أهديك إيَّاه ، شيئاً يليق بك، شيئاً يصف شعوري الحقيقي فاليوم اتفقنا أن نلتقي من جديدٍ بلا أعباء الماضي، أتنقَّل وأتنقَّل وتجرُّني عيني على الجمال ولكن كيف أجد جمال الأشياء من دونك، كان هناك صندوقٌ خشبيٌّ أمسكته بيدي كان بحجم الكف تقريباً اشتريته، واشتريت لك دفتر مذكرات غلافه من الكرتون وبداخله مزيجٌ من الألوان الأحمر والأصفر، ويتداخل اللونين أشخاصٌ بلا ملامح يمشون في شارعٍ تغطّيه أوراقٌ صفراء، وعلى الرَّصيف فندقٌ و أبنيةٌ قديمةٌ واشتريت لك قلماً للتَّخطيط كنت أعلم جيداً أنَّ هذه الأشياء تفرح الكاتب، واشتريت أيضاً رو ايةً وبعد هذا كلِّه ذهبت إلى المقهى وأخذت أرسمك من جديدٍ.

كلَّما وجدت نفسي على حافة الوقوع تمسَّكت بك، وكأنَّك شهوة الدُّنيا ونزواتها والنَّدم قبل الموت، كيف لقلبي أن يحتمل يا لوريتا كيف لعاشق أن يحبَّ؟ وكيف أُحبُّ وأنا لم أحبّ أحداً سواك؟! غافلتني الدُّنيا فوقفت صريع الشَّقاء، إنّي أحبُّك لا بل أهيم بك لا بل أكثر من ذلك إني أفارق الحياة.

بدأتُ أرسم عينيك، و قلبي يرتجفُ خوفاً من ضياع صورتك في مخيّلتي التي أرهقتها حرب الشَّوق يا لوريتا، أمسكت الرِّيشة أرسم وقلبي

يسير على ضوء القمر إلى تذكّر اسمي عندما خرج من شفتيك، شوقاً يدفعني إلى تذكُّر كلّ شيءٍ بك، شعرك الخريفي، وصوتك الحنون، وسيفك عندما ضربني بالغياب فقطع أوردتي التي تنطق باسمك الطاولة تحت يدي ترتجف، أدركت ذلك عندما بدأت يدي ترسم ملامح الخوف عندما ظهرت عليك عندما أخذتك بين ذراعي، لا لم يكن خوفاً بل كان صمتاً مرعباً مرتجفاً يتجلّى تحت سماءٍ واحدةٍ، أعدّي لي الأرض كي أستريح فإنّي أحبُّك حتّى التّعب.

تلك الجملة كتبتها عندما انتهيت من صورتك.

كانت الرَّسمة مقلوبةً على الوجه الأبيض قرب الصُّندوق أمامك

مددت يديك لتريها لكن مددت يدي إلى يدك وأمسكتها بقوةٍ

أرخت يدها بين يدي وضمت حاجبيها في صمتها المعتاد، رأيت الدَّمعة تسقط، وكأنَّ قلبي الذي سقط، شعرتُ بارتخاء يديها أكثر، شعرتُ باستسلامها، وكأنَّها كتلةٌ من الحزن تمشي على الأرض، استسلمت صغيرتي لوريتا وهطلت عينيها بالنَّدى.

كان السُّؤال الذي يدور في عقلها ...ماذا أفعل؟ هل نفترق مرَّةً ثانيةً أم نكمل حتّى الممات يوسف؟

قالت تلك الكلمات بصوتٍ مجروحٍ ملتهبٍ خافتٍ يختنق.

الآن يمكننا قراءة آخر رسالةٍ في الرِّواية.

أخرجت من حقيبتي روايتها، كان قلبي يخفق بشدةٍ، كنت أعلم أنَّ هناك كارثةً تختبئ في سطور الرِّواية، لم يكن ضعفها أمامي عن عبثٍ

بدأت أقرأ

كنت أثق تماماً أنَّك لن تصل إلى هذه الرِّسالة إلا و انا أمامك أبكي من خوفي من ضياعك أو من خوفي من الثَّبات بين يديك.

يوسف أرجوك قدِّر ما أنا به، أنا لا أفهم ما بي، لا أعلم ماذا يحدث عندما أمسك يديك ولا أعلم كيف أنجو منك، لذلك اعذرني إن أزعجتكَ تلك الكلمات التي ستقرأها.

قبل وفاة أمِّي بساعاتٍ كنت مرتميةً في حضنها، وهي صريعة الفراش عيناها خائفتان علي وعيناي تبكيان عليها، كنت أعلم أنَّها ستغادر عالمنا ولكنِّي لا أريد التَّصديق، يومها رفعت رأسي بيدها النَّاعمة وصوتها ينازع الحياة وقالت هناك سرٌّ يجب أن تعرفيه، الحياة قصيرةٌ جداً، لذلك ضعي يديك على الزُّهور لتعيش عيشي الحبَّ الذي حلمت به ولا تهتمي لما سيقال، يوسف مثل أبيه، لن ينساك ما دامت أنفاسه تتخبط في صدره اختاري ما تريدين...

لذلك أريد منك أن تقرأ بتمعنٍ لأنِّي أعلم جيداً بأنّني لا أستطيع قول هذا أمامك، لذلك اخترت أن أكتب لك ...

عزيزي يوسف وحبّي الحقيقي والأخير، لم تنتهِ المفاجئات بعد أبداً ولن تنتهي لأنّها الدُّنيا بكلِّ بساطةٍ، كلُّ يومٍ يتغيَّر ألف حالٍ ...

انظرْ في عيني يا عزيزي ثمَّ أكملْ الرِّسالة، انظرْ إليهما ...

هل وجدت نفسك فيهما؟

ستخبرك السُّطور كلَّ شيءٍ، ستخبرك كم مرَّةً بكيت و أنا أكتبها إليك، كم مرةً شعرت بأنَّك أمامي في ذلك القبر المعتم الذي أسكنه، ما أقسى تلك الأيَّام التي مضت ...

تخيَّل معي يا يوسف، أنَّك تسكن قبراً تنام وتأكل وتدرس فيه، تخيَّل أنَّك كنت رفيقي في هذه الغرفة التي لم ترها من قبل، ولكن هي تعرفك جيداً، أحجارها تعرف صوتك عندما أخبرتها عنك ...

سيقرأ هذه الرَّسائل الآلاف غيرك ولن يعرفني سواك، سأظلُّ مثل الظِّلِّ لدى العالم أجمع، وستظلُّ أنت عالمي الخاص ...

أعلم أنَّك مللت من القراءة ولم تصل بعد إلى المبتغى.

أنا خائفةٌ وهذا هو المبتغى ولكن نحن النِّساء هكذا، لا نعرف كيف نعبِّرونشرح. أنا خائفةٌ من أن أفقدك مرَّةً أخرى وخائفةٌ من أن نكمل معاً !

ساعدني لكي أعرف كيف أحافظ عليك بدون أن أخسر أكثر.

المخلصة لك دائماً.

لوريتا

قرأت تلك الرِّسالة وهي راجفةٌ خائفةٌ، هل سنبتعد مرَّةً أخرى؟

لا أستطيع لا أستطيع يا يوسف، تقول تلك الكلمات ووجهها محمّرٌ من البكاء. لا أعلم ما سبب كثرة الأديان ما دام الإنسان نفسه، وله مبادئ وأخلاق تربَّى عليها بعيداً عن الدِّين.

لأنَّ الاختلاف رائعٌ وفي أرض الشَّام، هناك أديانٌ كثيرةٌ وآلاف الطَّوائف

إذاً لماذا الحبُّ ممنوعٌ بين تلك الأديان، ها أنا أحببت مسلماً ولكن ديني يمنعني صحيح؟

- لا شكَّ في ذلك

- إذا الدِّين كان محور التَّفرقة وليس الحبُّ والله واحدٌ لماذا كثرت تلك الأديان لماذا يا يوسف ..لماذا قلبي يريد مسلماً وديني يقف في طريقي ؟ ماذا أفعل؟

لم أجبْ لأنّي لا أجد الجواب نظرت في عينيها نظرة النَّدم، لأنّي اقتربت وأصبحت وجعاً لها. لأنّي كنت لا أحد وعندما تملَّك الحبُّ قلبي أصبحت جرحاً في قلبها وحولي إشارة استفهامٍ.

لماذا ظهرت يا يوسف ولمَ اقتربت ما دمت من البداية تعرف النِّهاية لأنّي لم أستطع أن أمسك بالرِّياح التي أخذتني إليك لأنّك صوت فيروز ولأنّي رأيتك روحاً تتكلّم لا جسداً كم كان مُتعباً هذا الحبّ. خرجت مسرعةً من المقهى خرجت وراءها،

ذاهبة إلى البعيد جسدها يختفي شيئاً فشيئاً

عيناها اللتان أرهقتاني لن أراهما بعد اليوم ...ستذهب صغيرتي بلا عودةٍ.

مضت الأيَّام هكذا لا اتّصال ولا أثر لها، أذهب يوميّاً من شارع بيتها لعلّي ألقاها تنتظرني لكن بلا جدوى، لم تعد تنتظرني صغيرتي وبعد أسبوعٍ اتصلت بي لتقول:

يوسف سنهرب سوياً.-

-هل أصابك الجنون؟

أجل سنهرب. -

-إلى أين؟

لا يهم "قالت لوريتا" أنا احضر أمتعتي و أترك رسالةً إلى أبي أخبرته بها كلَّ شيءٍ سأقوم بفعله.

لم أكن أستطيع التَّفكير في شيءٍ، أميالٌ بسيطةٌ تسقط بيننا مثل ورقة الخريف، حواجز الدِّين قد كُسرت، سيوف الخوف قد صدأت، لوريتا أمامي وعلى ظهرها حقيبة سفرٍ صغيرةٍ. عيناً بعينٍ لا نفهم ماذا نفعل ولكن هذه نهاية الحبّ عندما تحكمه المشاعر ويموت العقل ...التِّفكير في أن نبقى سوياً فقط، عيناً بعينٍ وآلاف إشارات الاستفهام بينما، ولم أركِ من قبل في هذه الجديَّة، عاقدة الحاجبين والإصرار يتفجّر من حنجرتها قالت بصوتٍ حاسمٍ:

- هل التَّذاكر معك؟

- أجل

تجهَّزنا وبدأت رحلة السَّفر، ذهبنا إلى تركيا إلى مدينة اسطنبول تحديداً وصلنا في السَّاعة الرَّابعة عصراً، ولكيلا نجلس في خلوةٍ وحدنا اتَّصلنا

بشيخٍ وتمَّ عقد القِران.

مازلت أذكر ليلتها كيف كانت أنفاسه تلهف علي ...كيف امتلأ صدري برائحته ...كيف نسيت كل شيء وكلّ التّعب الذي شعرت به حتى وصلنا إلى هذا النُّقطة

أما هو فقد أخبر والديه بكلّ شيءٍ ولم أجد الرفض بل كان خوفهم عليه هو المانع الوحيد لازلت أذكر كلمة والدته عندما علمت بالأمر ...سيقتلوها يا يوسف إيّاك وأن تعود بها الى هنا

- مرحباً يا أبي.

بصوتٍ غاضبٍ وبصراخه المعتاد.

- أين أنت لقد بحثت عنك في كلّ مكانٍ.

- أنا في تركيا.

نعم؟؟؟ -

- أجل في تركيا.

- ماذا تفعلين هناك؟

لقد تزوَّجتُ. -

هل جننت أيَّتها المعتوهة عودي حالاً إلى البيت. -

-أبي انظرْ إلى الرَّقم المتَّصل بك ستعلم بأنّي أتكلَّم بجديةٍ.

وعندما تأكّد من أنّ الرَّقم من دولةٍ أجنبيَّةٍ

بتلعثم لسانه وبصوتٍ غاضبٍ

ماذا حصل لك؟-

تزوَّجت من يوسف الشَّاب المسلم. -

-ماذا؟؟؟؟

أجل-

- يا لعاري بك يا لعاري ...وهل اختلى بك؟

أجل البارحة تمَّ القران.-

بصوت صراخٍ لم يتمكَّن من كتمه:

لعنك الله ولعن ذريتك.-

و أقفل الهاتف بوجهي

يوسف يجلس أمامي ينظر في عيني لم يقل سوى كلمةً واحدةً:

- ابكي يا صغيرتي.

لقد غضِب عليَّ يا يوسف وانفجرتُ بالبكاء، وتكلَّمتُ بكلماتٍ مع شهيق البكاء بالكاد تفهم، خسرت يا يوسف خسرت أبي خسرت ديني خسرت كلَّ شيءٍ. خسرت كلَّ شيءٍ

اقترب منِّي ووضع رأسي على صدره ومسح بكفِّه الحنونة على رأسي وخدِّي وقال لي: سنصلح كلَّ شيءٍ أعدك بذلك.

وكانت هذه الكلمات هي ملجئي الوحيد كنت أثق بأنَّه سيصلح كلَّ شيءٍ. كنت أعلم بأنَّه لن يخلف بوعده لي، ومضت الأيَّام لتصبح أسابيع والأسابيع أشهر حتَّى أصبحت سنةً، والسَّنة أصبحت سنتين.

وفي يومٍ ماطرٍ شعرت بالدُّوار ورأسي ثقيلٌ جداً، لم أعد أستطيع الوقوف اريد التقيؤ فقط، اتَّصلت بيوسف وجاء مسرعاً شعرت بأنَّ اختياري كان صحيحاً عندما اخترته رأيت لهفته عليَّ. من عينيه كنت أراه الأمان والرَّاحة النَّفسيَّة من بعد الصَّلاة.

اتّصل بالإسعاف مباشرَة وتمَّ نقلي إلى المشفى التي يعمل بها وبينما الطبيب يفحصني قال الطبيب بابتسامةٍ عريضةٍ يوسف منزلك كم غرفة استغرب يوسف من سؤاله ولكنَّه أجاب:

- غرفة وصالة ..

إذا عليك أن تأخذ منزلاً أكبر لأنَّكم أصبحتم ثلاثةً. -

ابتسم وجهه بسرعةٍ، وهذه عادته لا يعرف أن يعبّر لذلك يبقى صامتاً أردت الاتصال بأبي وإخباره بالأمر، ولكن كلَّما اتَّصلت به يفصل الخط بوجهي، لم يعد لي من عائلتي سوى ابنة العم، هي التي تخبرني ما يحصل. كيف حال أبي وبفضل الله هو بخير أمَّا يوسف قد بدأ عمله الجديد منذ أشهر في المستشفى الكبير في إسطنبول.

كنت أريد أن تكون أمّي معي أو أن أزور قبرها، لأخبرها كيف طفلي الذي أحمله منذ ثلاثة أشهر يرهقني، كيف يضرب بطني بقوةٍ، وكيف كانت فرحتي به وكيف كانت فرحة يوسف به، بدأ بإحضار ملابسه

صغيرتي أنا سأصل إلى البيت بعد ساعةٍ استعدِّي للنُّزول-

إلى أين؟-

إلى المشفى.-

لماذا ماذا بك؟-

- متعبٌ قليلاً وأشعر بالدُّوار والغثيان.

قلت بقلقٍ حسناً: سأستعد في الحال.-

نزلت وركبنا بسيَّارتنا الجديدة، وأنا أسأله ما بك يا يوسف وكان يتظاهر حتَّى توقَّف أمام مطعمٍ جميلٍ، وقال وهو يضحك: بالتَّعب

كلُّ عامٍ و أنتٍ معي إلى آخر العمر يا صغيرتي.-

الفرحة بداخلي قد طغت على عقدة حاجبي.

صحيح اليوم عيد ميلادي!!-

الجزء الخامس

الفاصلة

سأبقى أحبك راحلاً إليك.. إن كان في الماء فلا أخشى الغريق وإن كان في اليابسة فلا أهاب سيوف الطريق.

محمود درويش

رسالة من لوريتا إلى يوسف

ستجد هذه الرِّسالة حينما تبحث في صندوقك الخشبي، عندما تفتح كلَّ ذكرياتنا سويّاً، عندما تبحث عن ظلِّ غيمةٍ وعن أغنيةٍ وعنِّي في صوت فيروز التي تحبُّها.

كنت أؤمن بأنَّ الحبَّ لن يدوم طويلاً، رغم ذلك اتَّبعت شغفي الذي كرهته وأحببته لأنِّي أحببتك مراتٍ عديدةٍ، لكنَّ هذا القلب تخور قواه يوماً يا يوسف، كنت أريد أن أكتب عنك بفرحٍ مثل الفرحة التي سكنت قلبي أوَّل مرَّةٍ التقينا بها، عُدْ بي إلى هناك وارحلْ وعُدْ ذلك الغريب الذي رسمني ورحلَ أو إن كنت تريد الذي يريحك، عُدْ بي إلى المستشفى، وارحلْ كم تمنَّيت أن أقولها بصراخٍ لا يهدأ. مثل عيني التي تبكي عليك الآن لكن قد بدأنا بالعدِّ التَّنازلي لنهاية الحبِّ الذي أرهق قلبي بين يديك الدَّافئتين، أتذكَّر عندما كنت ترسمني وأنا نائمةٌ أو بالأصحّ لم أكن نائمةً، ولكنّي كنت أفتعل ذلك لأنِّي أحبُّ تلك النَّظرة الأبويَّة منك، ظللتَ لساعةٍ تنظر إلي إلى أن رسمتني بحبٍّ لم أشهده من قبل يا يوسف، كنت السّبب الذي أحياني من جديدٍ وفي نفس الوقت كنت أنا ذلك القلب

الذي سيبكيك طوال حياتك، يومها سمعت أذان الفجر يصدح في سماء إسطنبول، لذلك تركت الرِّيشة وقمت لتتوضّأ وذهبت إلى المسجد الذي يبتعد عنا شارعين، عندما أغلقت الباب أنت قمت أنا لأرى ما رسمت، كنت في غاية الجمال كنت أسأل نفسي كيف تراني جميلةً بهذا القدر؟ على الرَّغم من أنّ وجهي بدأ يتهالك، رأيت كلماتي التي قلتها لك يوماً بعد زواجنا " لا تترك يدي التي أفلتتْ العالم وتمسكتْ بك " يومها كنت أبكي و أفتقد أبي وأمي ووطني، جلست قربي كعادتك تنظر إلي فقط، كنت أعلم جيّداً بأنَّ الكلمات تموت في صدرك عندما ترى دمعتي فلا تستطيع الكلام، لا تعرف لغةً سوى العناق الطويل وتأخذني من العالم الموحش إليك، وكأنَّ صدرك يخبّئ به عالماً آخر تريدني به أنا فقط، تخبئني من عالمي الفتَّاك الذي يحرق قلبي يوماً بعد يومٍ ...قلت لك حينها "أنت وطني يا يوسف" لا أعلم ماذا كنت تفكر بي ولكنّي أعلم أنّي في أمانٍ معك.

إسطنبول تلك المدينة التي عُدتُ طفلةً بها، وكأنَّك أبي يا يوسف كم من مرَّةٍ قلت لك بابا، وكم مرَّةٍ جئت إليَّ ترمي جبلاً من الهموم عليَّ، كم مرَّةً قلت لي زمِّليني، وعندما سألتك عن معنى تلك الكلمة أخبرتني بقصَّة الرَّسول الكريم، وكيف جاء خائفاً إلى زوجته بعدما رأى ملاك الوحي جبريل، كيف ارتمى بين يديها وقال زمِّليني يا خديجة، كنت مثل ابنتك وفي نفس الوقت مثل أمِّك، كنّا شخصاً واحداً أو ربَّما كنا عائلة من ألف شخصٍ اجتمعوا في هذا البيت، لا أنسى مقدار السعادة التي شعرت بها يوم علمت بأنّي حاملٌ وتجادلنا كثيراً على أسماء الأطفال فإن كان طفلاً فستمّيه جود، وإن كانت فتاةً فستسميها آيلا ولكنّي كنت مختلفة معك، فأنا أريد أن اسمي ابنتي على اسم أمّي وهنا ظهرت أوَّل مشكلةٍ في الدِّين، تلك المشكلة التي تغافلنا عنها كثيراً يا يوسف كيف ستسمي ابنتك باسمٍ مسيحي؟ وبعدها بدأنا التَّفكير في الأكثر أهمية على أي دينٍ سنربيهم؟ ولكنّي كنت و اثقةً تماماً بأنّ زوال الكون أهون عليك من أن تفلت يدي.

فأنا لم أتركْ ديني و أنت لم تجبرني على شيءٍ ولكنّي كنت أحبُّ الإسلام جداً، أذكر يوماً بأنّنا التقينا شيخاً كبيراً في شارع تقسيم وألقيتما السَّلام، وكانت التَّحية معروفةٌ:

- السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

- وعليكم السَّلام ورحمة الله وبركاته

كانت مثل بداية الهدنة بعد حربٍ استمرَّت لعصورٍ، ربَّما هي لم تكن هكذا وربَّما هي هكذا، لقد تعلَّمت منك الكثير، تعلَّمت بأنْ أحبَّ ديني بشكلٍ صحيحٍ وبأنْ أحبَّ الإسلام أكثر، وبأن هذا الكون ما هو إلا عبارةٍ عن مشاعر متحرّكةٍ، لا أنسى عندما تغرق في الحديث عن الفلسفة والموت وكيف كنت ترى بأنَّ العالم ما هو إلَّا حلْمٌ، وبأنَّ الحياة هي ومضة عينٍ ينتهي العمر سريعاً في محرابها. سأفتقدك كثيراً يا يوسف سأفتقدك لأنّي لم أفتقد أحداً غيرك، ولم يدخل لقلبي شابٌ سواك شكراً للكثير الكثير من عواطفك التي أحببتها ولكن حان وقت الغياب حان وقت التَّوبة عن أخطائي التي لا علاقة لك بها، سوى أن أُعذِّبك بها سأرحل عنك وعِدني أن تصبح أعظم رسامٍ في العالم، لأنَّك كذلك لأنَّك جرحي العميق وقلبي النَّابض بالحبِّ ولكن ...هذه الحياة يا يوسف ليست سوى غمضة عينٍ وعينُ أبي ستغمض يا يوسف، أريد رؤيته قبل أن يودِّع هذه الحياة. قال لابنة عمّي أنَّه يريد أن يراني قبل أن يموت يريد أن يسامحني، ولكن قبل هذا يريد مني ان أترك خطيئتي، وأذهب إليه و أنا خاليةٌ من الذُّنوب، أحبُّك يا ذنبي الكبير، أنتظرورقة انفصالنا يا يوسف، أرسلها إلى وطننا العزيز إلى العنوان الذي التقيتك به في حمص.

وداعاً يا عظيمي...

زوجتك المخلصة والباكية على كلِّ حرفٍ كتبته لك قسراً

لوريتا

العودة

ذهبتِ بلا أثرٍ وسط الجموع وتحت المطر مثل رشة العطر تذهب ويبقى الأثر

أحمد زاهر حوا

يوسف

أرسم ثمَّ أعيد الكرَّة كلَّ يومٍ، أرسم ملامحك الخائفة، ملامحك عندما اتخذتِ قراراً لا يعيد شيئاً، ولكن ذلك السُّؤال الذي يربكني ولم أعرف إجابته إلى الآن ...

ما هو القدر؟

ولماذا العجوز التي توفّيت على نفس سريرك ظهرت لك في الحلم؟

ولماذا كنتُ أنا ذلك الطبيب الذي يعالجك؟

ولماذا جئت إلى المقهى يومها ورسمتك؟

لماذا خرجنا عن المسار يوماً وهربنا سوياً؟

من كان الخطيئة يا تُرى من؟ من الذي أخرجني لأجله وباعني لأجل غيره؟

ولدي الذي وُلد ولم أره أبداً ويا تُرى ماذا يخبّئ القدر أكثر رأسي يكاد أن ينفجر لم أعد أستطيع التَّفكير في شيءٍ.

لبست معطفي الطويل وخرجت، كانت أمطار إسطنبول تغطِّي آلام الكثيرين وآآه يا إسطنبول كم تأذَّيت بك، وللأسف هنا كانت فرحة عمري الحقيقيَّة وهنا خسرت ما فرحت به.

جالسٌ على الموقف أنتظر أيَّة حافلةٍ، لا أدري إلى أين أذهب

جلس بقربي رجلٌ لا يتكلَّم ولا يسمع، كان حديثنا بالإشارة، ومر اقبة الشِّفاه كان يبيع مسابح قديمة، جلس قربي ينظر إلى السَّماء وعيناه متعبةٌ بالكاد يفتحهما، ربَّما أرهقه البرد ويحاول أن يتلقى أشعة الشَّمس التي أدفأت أجساد أجدادنا العارية. شعرت بخيبته عندما رأيته ينظر إلى طفلٍ صغيرٍ قرب أمِّه، ربَّما تمنَّى أن تقبل به قناةٌ وينجب منها طفله الذي كان يكون ملامحه منذ الصِّغر وربَّما لم ينسَ تلك الفتاة التي أحبَّها في طفولته ربَّما كان يراها في كلِّ الوجوه، أحببت روحه الهادئة، وفي نفس الوقت تحتوي آلاف الخيبات، وملايين نظرات الشَّفقة عليه، كان يؤلمه نظرة الأغنياء السُّفهاء، الذين لا يملكون سوى الدُّنيا الزَّائلة. أخذت الورقة والقلم وبدأنا التَّكلم باللغة التركيَّة:

- ما اسمك يا عم؟

أخذ مني الورقة وفي فرحة لم أشعر بأنَّه في الأربعين بل كان في العاشرة.

بدأ يكتب اسمي أحمد و أنت؟

أخذت الورقة منه وكتبت يوسف.

وعادت الكرَّة بيننا، والأسئلة التي تمنَّى ربَّما أن يقولها بشفتيه، والأجوبة التي حُرمَ من نطقها طوال حياته

ربَّما الأسئلة كانت تؤذيه جداً، علمت بأنَّه لم يتزوَّج أبداً بسبب عيوبه الخلقية وقلَّة ماله كانت نظرته للأطفال قاسيةً جداً.

ألقى عليَّ السَّلام وذهب إلى البعيد تحت الأمطار، لم يكن يهمُّه سوى أن يسدَّ جوعه برغيف خبزٍ، متعبٌ و انحناء ظهره بارزٌ وتجاعيد عينيه التي ظهرت قبل أوانها، ظلت تطاردني إلى اليوم. والسُّؤال الذي مازال يحرق دمي لماذا لم أقدِّم له المساعدة؟ ولماذا الأغنياء حيتان التِّجارة؟ لا يقدمون المساعدات لهؤلاء المستضعفين ويجب أن ألوم نفسي أولاً، ويجب أن أدفع كفارة، لكلِّ أولئك الذين مرُّوا في حياتي ولم أستطع أن أمدَّ لهم يد العون يوماً وربَّما كنت أستطيع.

بدأت أستحي من وجهي من يومها يا لوريتا، وخفت النَّظر في المرآة ورؤية وجهي القبيح، وربَّما ليس كذلك ولكن ذنب هذا الرَّجل يطاردني، و أنت أيضاً تطارديني في كلِّ زاويةٍ في هذا البيت البارد، لم أعد أشعل المدفأة ولم أحلق لحيتي، لم أعدْ أنا كما كنت، ما أصعب النَّدم يا عزيزتي ...ربَّما أردت كتابة هذه القصَّة إليك، لأنّي أردت القول ما أخفيه في صدري النَّدم ، نادمٌ على كل شيءٍ لم أستطع أن أحضره لك نادمٌ على ذلك اليوم الذي جئتك فيه، و أنا في قمَّة غضبي وصرخت عليك وذهبتي مسرعة إلى الغرفة، لكي لا أرى دمعتك وتزيدي همومي لن يفيد النَّدم ولا الحياة أيضاً مادام هناك كلامٌ لم يُقل.

انتظرك ... وكأنّي أنتظر نجمةً شاردةً نجمةً غارقةً في مجرى الأرض لا شيء ...هي ضوءٌ بلا أعمدةٍ ..بلا قضبان حتّى ...بلا شيءٍ ، ضوءٌ تأمَّلته فغرقت به ...غرقاً لا رجوع منه ...الليل في عينيك دعاني يوماً للتَّأمُّل فقلت أهلا بك لكن ...كنت في عزلةٍ عنك وكنتَ في عالمك الخاصّ وكأنَّك تبحثين عن نشأة الكون ..لا أحد يقطع شرودك لا أحد ...لا أحد يقاتل عينيك سواي ...يسرق النَّظر بين الحين والآخر وكنت أعلم أنّي سأدفع كفارةً لتلك الأيَّام، وها أنا أدفعها في قلمي الذي يكتب إليك ..وآه لو تعلمين كم يوجعني ذلك القلم، وكم يحمل من أنين ...ها أنا أمتلك كل شيءٍ ما عداك وكأنّي بعدما أحببتك وفقدتك لم أعد أمتلك شيئاً ...كلُّ

شيءٍ حلمٌ ...كلُّ شيءٍ بلا أساس ...كلُّ شيءٍ هباءٌ غبار..يطير حيث يريد بلا أجنحةٍ ..مثلنا تماماً نحبُّ بلا وعي لما سيحصل في الغياب ...كان أكثر ما يؤلمني أني لم أرَولدي فقد أصبح عمره شهراً ..أريد أن أراه ..لذلك حجزت بالطائرة وهاجرت إليك مرَّةً أخرى

لوريتا

كانت نظراته متعبةٌ , غريبةٌ وقاتلةٌ ,ليست تلك هي نظرته الحقيقة

لا لم تكن هي أبداً ...جلست بين يديه , والصمتُ يجول الغرفة ..كنتُ أسمع صوت أنفاسه وهي تبتعد عن جسده ثمّ تعود تدريجياً وكأنَّها تعذبه وكأن الموت يلعب بأعصابه أمّا انا فقد أرسل الله لي روحاً بين يدي وهذه الرُّوح كانت جود (كما كان يريد زوجي) أو لم أعد أعرف ما كان قراره بعد , فلم تصلني ورقة الانفصال ابداً إلى الآن ...عندما فح عينيه على هذه الدنيا كان والدي قربي قاوم الموت لأجل يومها , لم أكن أعرف قيمة والدي ابداً , لم أشعر بخوفه الحقيقي ربّما لأنّه رجلٌ يكابر حتّى الموت

أخذه بين يديه ونظر اليَّ , وقال هذا هديتك يا ابنتي حافظي عليها جيداً سيتربَّى بدون أبٍ لذلك كوني والده ,كوني مثل مريم العذراء وإجعليه مثل المسيح ...كوني وطناً بلا رجال

لكن لماذا؟

لماذا سيتربَّى ولدي بدون سند وأنا بلا سند ها أنت يا أبي يقترب فراقنا وكأّن الله أرسل جود ليخلِّص روح والدي من خطياها ...أوه ماذا اقول ؟ ها قد كبر وهو في المستشفى بين والدي الذي ينازع الرُّوح وبيني أنا تلك التي أتظاهر بالاحتمال ...أين أنت ؟

قد ذاب الفؤاد واشتعل شوقاً إليك ,وكنت أثق تماماً بأنك لن تتركني في أيّامي الصِّعاب حتّى لمحت ظلك البعيد يقترب أكثر من غرفة والدي في المستشفى

الجزء السادس

أين أمي؟

أنا مجرد طفل لا يمكن أن يكبر أبدًا، ولازلت أستمرُّ في طرح أسئلة "كيف" و"لماذا". ومن حينٍ لآخر، أجد الإجابة.

ستيفن هوكينغ

بعد خمس عشرة سنةٍ:

جود

أبي قربي يحدِّثني عن أمّي كثيراً منذ صغري ..وها قد بلغت سن الرَّابعة عشر ولم أرَ أمّي يوماً ..فقط في الصُّور كم كانت جميلةً وعندما كنت أسأله عن غيابها و أين هي ...يقول ذهبت إلى البعيد البعيد ....كم تمنَّت أن تراك شاباً ...وفي يوم ماطرٍ وحزينٍ دخلت جلست قربه كان يقرأ كتاباً وبالمناسبة كلُّ بيتنا لوحاته وفي غرفة نوم أبي رسمةٌ كبيرة لأمّي قد رسمها بيده ووضعها فوق سريره مباشرةً ..كم كنت تحبُّها يا أبي وكيف اختفت

-أبي هل أنا كبير؟

خلع نظارته ووضع الكتاب جانباً و ابتسم في وجهي وكأنَّه علم ماذا أريد أن أسأله ...هزَّ برأسه ...وقال:

-أنت زينة الشَّباب

- إذا لماذا لا تخبرني أين أمّي؟

عادت نظرة الانكسار إلى عينيه ...يا بني هناك أشياء تبقى جميلةً إذا لم نعرف حقيقتها ولكنّي أريد أن أعرف.

قال:

- ما أوتيتم من العلم إلا قليلاً.

نظرت إليه باستغرابٍ ثمَّ أكمل حديثه:

إنَّ الكبر يا ولدي ليس له عمرٌ أبداً، ومهما كبرت فستظلّ ناقصاً ومع كلِّ سؤالٍ ستسأله لنفسك ستدرك كم أنت ناقصٌ، إن عرفت أين هي ستبحث عن أجوبةٍ لن يستوعبها عقلك، وربَّما ستكرهني أنا

- سأكرهك هل أنت من أخفاها؟

ضحك في وجهي ثمَّ قال:

- أرأيت ستبدأ في البحث والتَّساؤلات.

ولكنّي ما زلت مصرّاً على أن أعرف قال جود هذا.

قام من على كرسيه الخيزران وذهب إلى غرفته، وهو يقول:

- لقد حذَّرتك ألّا تعرف كلَّ الحقيقة.

ثمَّ عاد وبيده ظرفٌ وعاد إلى مكانه، وضع الظَّرف في يدي وقال منّي إليك لقد كتبتها منذ خمس سنين، اقرأْ ولكنّي ما زلت أحذِّرك ألا تقرأ

- هل تخيّرني أم تمنعني؟
- ومن قال لك أنَّ الإنسان له حق الاختيار.
- ها أنا قد اخترت أن أقرأ يا أبي.
- وما هو الخيار الثَّاني؟

- ألّا أقرأ.

- وإن لم تقرأ ستظلُّ تتساءل عن وفاتها، وهذا هو الإنسان يُوضع أمام خيارين أصعب من بعضهما، والاثنان ليسا سوى طريقاً واحداً وهو التَّجربة والمعرفة.

- شكراً لك حضرة الطَّبيب والرَّسام.

ذهبت إلى غرفتي مسرعاً وفتحت الكتاب وبدأت بالقراءة:

على شرفة بيتي المتواضع في حمص، الذي اشتريته بعد غيابك، ها هنا يجلس جود ابننا قربي يتأمَّل صورتك التي تصورناها في إسطنبول، وفي ذلك المطعم تحديداً مطعم "garden 1897" عندما قلت لك يومها بأنّي متعبٌ، كان عيد زواجنا الثَّاني والأخير، ويوم ميلادي في نفس الوقت، ولم أعلم كيف تغيَّرت السِّنين، قد تغيَّر الحال كثيراً وتغيَّر كلُّ شيءٍ بعد هذه الأعوام الطويلة، قد كبر جود وقد اتَّخذ مثل عينيك ولون شعرك، قد أحبَّ لقياك جداً لدرجة أنَّه قال لي يوماً عنما كان صغيراً في السَّابعة من عمره، لو أنَّ أمّي هنا أين هي؟ أصدقائي في المدرسة دائماً ما يقولون أنَّ أمَّهم تعدُّ لهم الفطور، أمَّا أنا فأنت الذي تعدُّ لي الفطور كان يبحث عنك كثيراً وكيف أقول له بأنّي المذنب الوحيد في هذه القضية. أمَّا أنت يا بني ستكبر يوماً، وستلحُّ عليَّ بالأسئلة عن أمِّك، وها أنا أخطُّ إليك بقلمي ما جرى. وتذكَّر بأنّي أحببت أمَّك إلى حدِّ الجنون وربَّما قد أكون نصحتك جداً، بألا تعرف وبأنَّ الحقيقة مؤلمةٌ جداً ولكن ماذا عليَّ أن أفعل. قد تركت أمُّك رسالةً مفادها بأنَّها ستعود إلى جدّك الذي بكى عندما رآك، وتمنّى لو أنَّه يستطيع أن يعلمك خطيئته، حينها كانت أمُّك في شهرها الثَّامن الحمل.

حاولت أن أتفهَّم الوضع، وأن أتأقلم على غيابها لكن ذلك أشبه بالمستحيل. وإلى هذه اللحظة التي أكتب إليك فيها أشعر بأنَّ لوريتا قربي،

تنظر الي بعينيها السَّوداوين الدِّمشقيتين بكثيرٍ من الدُّموع والحسرة المزمنة والموت البطيء.

خلال شهرين حاولت الاتِّصال بها كثيراً وتعبت جداً، لا جدران تعيد صوتها ولا يدها تحنو علي، أصبح المنزل كئيباً معتماً بالسَّواد، عدت وقبلت أرض الشَّام، وارتعش صدري من جديدٍ، وكأنَّ دمشق هي أنت يا لوريتا وكأنِّي ما كنت أعرف الشَّام سوى منك، ذهبت إلى بيتهما هنا وفي هذا البيت المهجور المقابل لشرفتك، ذلك البيت الذي سألتني عنه كثيراً ولماذا لا يسكنه أحد، آآآه يا ولدي لا تعرف ما تحمله هذه الجدران القديمة، لا تعرف بأنَّها حملت صوت أمِّك إليَّ، انظرْ من النَّافذة ستجد نافذة البيت القديم، هنا أمُّك انتظرتني يومها بعد الغياب الطويل. لا تدري كم بكى هذا البيت، انظرْ إلى الشَّارع ..هنا وقفت يوماً أنتظر ابتسامة أمِّك، هنا في هذه المدينة قد تآخت أرواحنا من جديد والتأم الجرح وهنا على هذه الأرض انتهت الحكاية إلى الأبد ...عندما عدت طرقت الباب كثيراً، ولم يسمعني أحدٌ هنا وقفت أنتظرها، ولكنها لم تعد وقد هطل المطر كثيراً يومها، طرقت الباب على الجيران لأسألهم عن عائلتها، فلقيت الجواب القاتل: في المشفى هي و أبوها فجدُّك كان يُحتضر. ذهبت مسرعاً إليهما وما إنْ رأتني حتَّى ارتمت بين ذراعي خائفةً متعبةً، وتلفظ بكلماتٍ لا تفهم ولكن الذي فهمته بأنَّ جدَّك متعبٌ كثيراً فقد توغَّل في دمه السَّرطان، ولم يعد هناك أملٌ منه، وقفت على الباب أتأمَّل وجهه وملامحه، قد كانت متعبةً وكأنَّ ملائكة الموت تضبُّ رحالها إليه، عينه شبه مغمضةٍ اقتربت منه وقلت بهمسٍ، لا تخفْ يا عمي سأذهب بعيداً عنها، و ابني الذي لم أره بعد سيكون لها ومن حقِّها لا تخفْ اطمئنْ ..

اقتربت من أمِّك وسألتها عنك أنت يا بني الغالي الذي بقي لي، أشارت بيدها إلى غرفةٍ ثانيةٍ قد كنت مريضاً، دخلت إلى الغرفة ورأيتك كنت ملاكاً نائماً، أردت احتضانك ولكنِّي كنت أعلم جيداً أنَّك لن تبقى معي.

لذلك ابتعدت لكيلا تعذبني السِّنين، بقيت مع أمّك لأيَّامٍ في المشفى قرب جدّك وما كنا نتحدّث أبداً، عُدنا غريبين لا يربطنا سوى أنتَ وفي ذلك اليوم بعد مضي أسبوعين، حصل ما لم يكن بالحسبان.

جود قلبت صفحةً أخرى كانت فارغةً، والتي تليها كلها فارغةٌ أين أمي لم أفهم قمت إلي أبي ووجهي أحمر يختنق، كان جالساً على الكرسي قال بصوتٍ مثقلٍ متعبٍ هل جئت لتكمل ما قرأت؟ فأجبته:

- كلُّ الصَّفحات فارغةٌ ولم أعرف أين أمي ...
- ما زلت أعطيك الخيار...
- أريد أن أعرف (قلت هذا بإصرارٍ).
- غداً سنذهب إليها.
- هل هي هنا؟؟؟؟
- أجل.
- لماذا لم تقل لي؟؟؟

أبي أتحدَّث إليك هل أنت عديم الشَّفقة ؟؟منذ صغري و أنا أسألك عنها ولم تجب واليوم تقول لي بأنَّها هنا...

لم يجب ازددت غيظاً وقلت بصراخٍ:

- أقسم بأنّي سأقول لها كلَّ شيءٍ غداً، سأقول بأنَّك حرمتني منها لأنَّك قاسي القلب

(لم يُجبْ بل ظل يحملق في دخان سيجارته)

- حسناً لا تجب لن أعود اليك مجدداً عندما ألتقيها لن أعود أتفهم

في اليوم التَّالي...

يوسف

أمسك مقبض السَّيَّارة متجهاً نحوها، جود قربي عيناه مليئتان بدموع الفرح ينتظرك وينتظر حضناً دافئاً أكثر منِّي، يريدك ولكن ليته يعلم الحقيقة من قبل يدي مرتجفةٌ وصوتي خافتٌ كيف سيكون لقاؤه بك؟ هل سيتقبل ما حصل؟

- أبي انتبهْ إلى الطَّريق مع صوت زمورٍ قويٍّ مرَّ بجانبي،

نظرت إليه وقلت له:

- لا تخف.
- متى سنصل؟
- بقي القليل.
- لن أعود معك.

قال هذا بفرحٍ يختلط بالمزاح وكأنَّه يعتذر مني عن كلماته توقَّفت السَّيَّارة.

- لماذا توقَّفنا؟
- انزلْ وستعرف كلَّ شيءٍ.

انتهى كلُّ شيءٍ!!

-"متى ماتت ؟

-عندما نسيتُ تماماً أنَّ الموت لا ينسى أحداً

أيمن العتوم

كان ينظر حوله الى القبور، ولم **يستوعبْ** بعد أنَّ أمَّه ماتت، عندما كان عمره شهرين يمشي ببطءٍ وير اقب كلَّ صليبٍ رُفعَ فوق القبور. ارتعشت يداه و أنفاسه تتخبَّط في صدره، شعر بالهواء يلفح أوراق الخريف المتناثرة فوق القبور المتآكلة.

- أبي ..قال هذا بصوتٍ خافتٍ خائفٍ.

أخذت نفساً عميقاً وقلت:

- هذه الحقيقة يا بني أمُّك تر اقبنا من فوق.

أشرت بإصبعي نحو السَّماء، وقفت أمام قبرك ومسحت على اسمك بيدي، كان جود صامتاً حابساً لدمعته، وكأنّي تذكَّرت نفسي في أوَّل مرَّةٍ وقفت فيها أمام قبرك، أخذت نفساً عميقاً مرَّةً أخرى استعداداً لقول الحقيقة كاملةً. سويّاً ننظر إلى قبرك يا عزيزتي، سوياً نتأمَّل أيَّاماً كادت بالكاد تمضي شريط الحياة التي جمعتنا سويّاً، أوَّل يومٍ رسمتك به وأوَّل حبٍّ حقيقيٍّ. عندما كنت أجري العملية لك وعيناك المغمضتين أوّل عناقٍ وذوبانٍ بين أضلعي أوَّل كلمة حبٍّ ورعشة قلبي، حديثنا الطَّويل على الهاتف والله بيننا حمص التي قتلك وشاب قلبي بعدها، ودمشق التي

قتلتني ورمتني بين أزقَّتها، كلُّهم تحت التُّراب. الآن لم يبقَ سوى صورٌ أقبِّلها وأغمرها بعيني بعد أن يملأها الضَّباب.

- ما زلت تريد إكمال الرِّسالة؟

قلت هذا بكلماتٍ بطيئةٍ لم يجبْ فقد اتَّخذ نفس طباعي. عندما يفكِّر ويحزن يصمت وكأنَّ الكلمات تهرب وتختبئ في جوفه، تموت بين السَّطور المليئة بأرواح الذِّكريات.

كان شارداً يبحث عن إجاباتٍ كثيرةٍ، ولكنَّه لا يجرؤ لأنَّ العقل يخلق و اقعاً مزيَّفاً لكي يحمي نفسه من الصَّدمة، هذه الجملة كم مرَّةً قلتها له

- بني

ظلَّ صامتاً ير اقب أنفاسه الضَّائعة، يحاول أن يمسك بحلمه الذي حلمه طوال عمره، أن يلتقي بأمِّه، أن يبكي بين يديها، لكن لم يعد للحلم بقيةٌ قد انتهى كلُّ شيءٍ.

- كان آخر لقاءٍ لنا قرب المشفى الكبيرة.
- ماذا حصل؟ (قال جود بنبرة مخانقة مليئة بالدُّموع...)

عندما خرجت من المشفى، كانت قد لحقت بي لم أسمعها جيّداً، إلّا عندما قطعت الشَّارع توقَّفتُ فسألتني يومها:

- ماذا سنفعل؟
- قلت: سنكبر.

ابتسمت ابتسامةً خفيفةً وقالت:

- أجبني بوضوحٍ.
- سأبقى على الوعد لكن من بعيدٍ.

نزلت من عينيها دمعةٌ، وكأنَّها تعرف الإجابة مسبقاً.

- لوريتا ...نحن أخطأنا خرجنا عن المسار.

- أيّ مسارٍ؟ (قالت هذا وهي تحاول أن تمسح دموعها بيديها النَّاعمة)

- القدر...المسار الذي كُتبَ لنا، وحاولنا تخطِّيه فعُوقبنا يا لوريتا.

- هل نحن الخطأ أم أنَّ النَّاس حولك يريدون ألا يجمعونا.

- الله لم يرد يا لوريتا ...

- أجل الله أجل ...كلُّ أخطائنا نرميها على النَّصيب والقدر.

- هذه الحقيقة ...

- هل تريد الذَّهاب مرَّةً أخرى؟

- أليست هذه رغبتك؟

- يوسف ...أنا مثل الطفلة لا أعلم ما أريد ولكنّي أريدك أنت.

توقَّفتُ لوهلةٍ عن الكلام، تذكَّرت كلَّ شيءٍ، كلُّ شيءٍ مرَّ أمامي في لمح البصر، كلُّ شيءٍ بنيته لأجلها، تركت عائلتي ووطني وطفلي و أنا تركت نفسي عند ذلك البيت القديم، كلُّه ذهب في لحظةٍ.

- ألا تريد الإجابة؟؟

- أحبُّك ولكن ..

- - و أنا أحبُّك أرجوك لا ترحلْ. ...كانت عيناها تبكيان يا جود ...لم أكن أستطيع أن أصمد أمامهما ابداً.

- وماذا حصل بعدها؟

ابتسمت وقالت سأقول لأبي بأنّي أريدك إلى الأبد، سأقنعه أعدك ابتسمت في وجهها، كنت فرحاً جداً سنعود مرَّةً أخرى ولكن كان القدر له رأيٌّ آخر، لقد اختفت.

- كيف اختفت؟

- سيَّارةٌ مسرعةٌ قد أخذتها منِّي في ثانيةٍ.

ما زلت أذكر لون السَّيَّارة ونوعها، وما زلت أتذكَّر وجه صاحب العربة كيف كان مذعوراً، ما زلت أذكر كيف الدِّماء غطَّت شعرها الخريفي، وكيف سقطت ولم تأتِ بأيّة حركةٍ، كيف ارتمت كورقة خريفٍ سقطت من أعلى شجرةٍ في خريفها، قد ضربها القدر إلى الأبد يا بني. لم يعد يستطيع التَّحمل، ركع أمام قبرك لم تعد تحمله قدميه، وذرف الدُّموع الصَّامتة ...دموعه مازالت على قبرك إلى اليوم.

- لماذا يا أمّي لماذا ..لماذا ...؟ أريدك أن تعودي الآن أرجوكِ أعدها يا أبي أعدها، قلْ بأنَّ هذه مجرد مزحةٍ وبأنَّك تخبِّئُ أمّي.

بقيتُ صامتاً، شعرت بعروق عيني تتقطع تكاد تنفجر، لن أبكي عليك لا وعدتُكِ أن أكون قويّاً وعدتكِ أن أربّي ابننا وأن أعوِّضه عنك، ولكنّه يريدك كما أريدك أنا، كلانا أطفالك ...كلانا نريدك أمَّاً تعتني بنا بعدما فقدت عائلتي أنا أيضاً. تركته يبكي حتَّى جفت دموع عينيه.

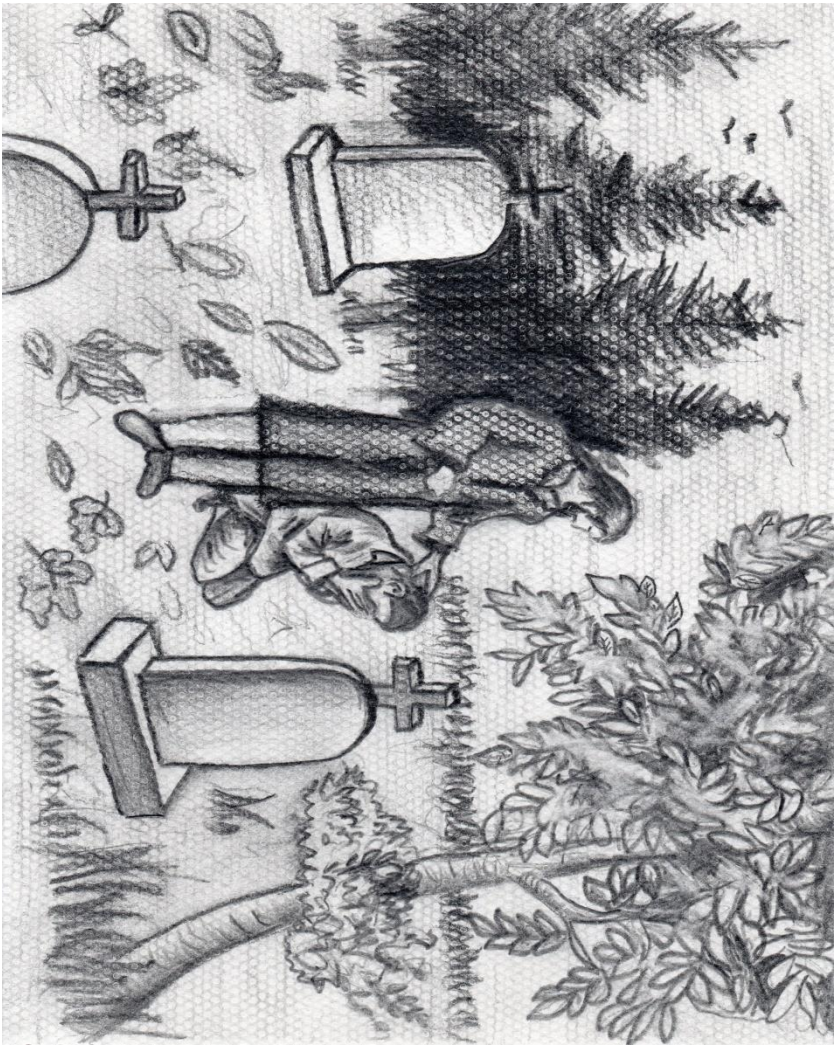

رسم

تيماء قراط

توقَّف أمام البيت الذي سكنتيه، بدأ يتأمَّل كلَّ زاويةٍ فيه وكلّ حجرٍ حتّى الشُّباك الذي بكى عليك يبكيني اليوم، ويبكيه وعواصف من الألم تتجوَّل في عينيه:

- هل تريد الدُّخول؟ (نظر إليَّ بضعفٍ وتردُّدٍ، أخرجت المفتاح من جيبي وأعطيته له أخذ المفتاح ببطءٍ وبدأ يتأمَّل الباب الخشبيَّ.

- هل هنا رأيتها للمرَّة الثَّانية؟

- أجل يا بني كانت تقف هنا وأشرتُ بيدي نحو الباب.

تقدَّم عدَّة خطواتٍ إلى الأمام، لم تعد يفصله عن الباب سوى شبرٌ واحدٌ أدخل المفتاح، وفتح الباب بدأ يتقدَّم رويداً رويداً.

وما إن دخل حتَّى سمع صوت أقدامٍ تتَّجه نحوه التفت برأسه.

- من أنت؟

كان هناك سيدةٌ تقف قرب يوسف لم تجبه بل أخذته بين ذراعيها وبكت أول سيدة تحتضنه بعد جدَّته، شعر بدمعها ينزل على رقبته، قد تملكته الشَّجاعة لكي يغمرها بيديه الصَّغيرة.

- هذه خالتك يا جود.

نظر إليَّ باستغرابٍ وقال لي بأنَّ أمَّه لم يكن لديها أخوةٌ.

صحيح ولكن هذه جوليا ابنة عم أمّك.

نظرت إلى عينيه كانت نظراتها الأموميَّة تخترق جسده، أخذتْ يده لكي تحكي قصَّة هذا البيت ...

- جود (التفت إليّ ببطءٍ).

- نعم أبي مازالت هناك بقية.

- لم يبقَ شيءٌ فقط شيءٌ بسيطٌ ...

- ما هو؟

وأخرجتُ من معطفي ورقةً وقلت له أن يقرأ.

النِّهاية

من غير الممكن ألا أختار، يمكن أن أختار دائماً

لكن علي أن أعرف أنّي وإن لم أختر، أكون قد اخترت أيضاً..

(عدم الاختيار هو اختيار بحد ذاته)

لا توجد حقيقةٌ كاملةٌ

طرقت الباب بعد يومين من وفاتك، بيتك يا قمري ذلك البيت الذي كان به أنينك، فتحت الباب جوليا فسلَّمتُ عليها:

- مساء الخير

- تفضل عمّي بانتظارك.

كان قد تعب جداً وأصرَّ أن يعود إلى البيت بعد وفاتك. أصرَّ أن ينام على سريرك، كم تمنَّى ذلك اليوم أن يموت قبلك، لم أدرك خطيئتي عندما أخذتك منه لم أدرك تلك الحقيقة ..

دخلت إلى غرفتكِ، رائحتكِ مازالت فيها، أراكِ في المرآة كلَّما قمتي لتزيّني نفسك، أراكِ في كلِّ شيءٍ حولي.

- عمّي هل أنت بخير؟

- كنت بخيرٍ قبل أن تأتي ولكنّي الآن طريح الفراش.

(كان ينطق بهذه الكلمات بصعوبةٍ)

- أطال الله عمرك يا عمّي.

- لا ...ابنتي تنتظرني.

يقول هذا وعيناه تبكيان وصوته متعبٌ جداً، لم أستطع أن أصمد بكيت بين يديه قائلاً:

- أرجوك سامحني على خطيئتي أرجوك ...أقسم بأنّي أحببتها أقسم بأنّي لم أردْ أن يحدث شيءٌ لها

- لقد حذَّرتها يا يوسف وحذَّرتك ...لماذا لم تستمع إليَّ؟

لماذا هربت بها إلى البعيد، وحرمتني منها لماذا لم تفكِّر في أبنائك؟

أتأمَّل عينيه وأراقب الدُّموع كيف تنهمر، و أنا صامت:

- لماذا لم تزوجّني إيَّاها؟ (قلت هذا الكلام بعفويةٍ)

- لأنَّها ابنتي يا يوسف لأنَّها ابنتي.

- لم أفهم.

- ستدرك عندما يكبر طفلك، وتشعر بخوفك على طفلك.

- سيكبر لكنّي لن أعترض طريقه في اختياره.

- كيف عرفت مكاننا يا يوسف؟

- كتبت لوريتا القصَّة ضمن مجموعة رسائل لكي أصل إليها.

- لماذا أحبتك كلَّ هذا الحبِّ؟

- لأنّي أحببتها أيضاً لا يمكن أن نفسِّر تلاقي الأرواح سويّاً.

- وبعد ما التقيتما هل عشتما في هناءٍ؟ هل نجحت في أن تحافظ عليها يا يوسف؟

- لا أعلم ولكنّي حاولت ولكن...قدَّر الله وما شاء فعل.

- لماذا حاربت قدر الرَّب منذ البداية؟

- لم أحارب بل أحببتها وأردتها.

- هل أنت من يحدّد من لك؟

- لا ولكن ...

- هل قرأت الإنجيل؟

- أجل لم أجد به حكماً يحرّم هذا الزَّواج، أو بالأصحِّ كان الإنجيل عبارةٍعن حياة المسيح، ألم تكن من وصايا المسيح أحبُّوا بعضكم بعضاً كما أنا أحببتكم؟ هل العادات تحكمكم وترمونها على الدِّين؟

أرجع ظهره إلى الخلف وقال ببطءٍ: هل فكَّرت يوماً بأن يكون لديك ابنة واحدةً وتريد الزَّواج بشخصٍ من غير دينها ماذا سأفعل؟ لم أسلمتْ؟ هل سأتركها هكذا وتكون خطيئتها من الكبائر؟

لا تعرفها جيداً يا عمّي، لم تكن تعرف كم كانت تحبُّ السَّيِّد المسيح ولم تكن تعرف كم تحبُّ الإسلام، لم تكن تعرفها جيداً، ولو أسلمت أليس الله يغفر للجميع؟

لماذا نشأت الأديان من الأساس ولماذا اختلافها؟ كان هذا سؤالها دائماً هل يمكنك أن تجيب عليه بعيداً عن القوقعة التي أغرقتنا؟ أليس الله يحبُّنا جميعاً؟

لقد رحلت وذهبت إلى السَّماء قرب أمّها، لن تسامحنا لا أنا ولا أنت مثلنا يا عم أو يا أبونا كما تحبّ أن تناديك النَّاس، كلانا كان على خطأ وربَّما حتماً ستموت لوريتا لينتهي الصِّراع الطويل بيننا، أحببتك ابنتكم فقتلت، هذه ملخص الحياة لا يمكننا أن نخرج عن مسارها وعاداتها.

كانت عيناه تتابع المطر الذي ينهمر على الشُّباك الذي كتبت عنه لوريتا أشرت بإصبعي إليه، هنا رأيتها وهنا نشتاق إليها أنا و أنت. نظر إليَّ والنَّدم يصرخ في عينيه وعيني مليئةٌ بالأسى

لقد رحلت عصفورتي.

القدر

لن نكون متديناً إلا بالعلم فالله لا يعبد بالجهل

مصطفى محمود

الآن فهمت.

قد تأكَّدت مقولتك يا حجّة، عرفت اليوم لماذا ظهرتي لها في الحلم؟ عرفت بأنَّك تحذِّريها ولكن لم نستمع الآن اتّضح السِّرُّوراء كلِّ شيءٍ.

الآن يا جود عليك أن تعلم أنَّ حقيقة الموت والقدر تكمن في السُّطور. وإن لم تفهم أعد ما قرأت يا ولدي أعد التَّاريخ الذي مضى. اقرأ عن فرسان الهيكل، و اقرأ عن الخلافة الإسلاميَّة، اقرأ كيف نشأ فرسان الهيكل لحماية هيكل سليمان وبعدها اصبحوا قتلة محترفين و اقرأ عن الخلافة عندما قاتلت بعضها

ابحثْ عن المسيح في أقواله، و ابحثْ عن محمّد في أحاديثه،

إنَّ الله يحبُّنا ولكن...يجب أن تموت لوريتا لكي يتضح كلَّ شيءٍ

ابحثْ عن القدر داخلك هناك بوصلةٌ ترشدك إلى الطَّريق الصَّحيح

القدر ...وسرُّ الوجود ...والله ...ونشأة الكون ...ونظريَّات التَّكرار والتَّزامنيَّة و أثر الفراشة ...

ابحثْ في كلِّ شيءٍ يا بني...

و اقرأْ حتّى يشيب الغراب...

واسجدْ كلَّما ضاق صدرك...

وتأمَّل الكون بما يحمله من جمالٍ...

ستعرف حينها أنَّ الأشياء الماديَّة زائلةٌ...

ستعرف حينها أن الله يمدُّ يده إليك كلَّ ثانيةٍ...

ستدرك حقائق أكثر كلَّما دققت أكثر...

هل عرفت لماذا أمّك ماتت؟

هل عرفت كيف يكون القدر؟

هل عرفت ماهي حكمة الله في أدقِّ تفاصيله؟

أمَّا أنت عزيزي القارئ

أعرفُ تماماً ما يجول في خاطرك...

وربَّما أفكارك تخالف أفكاري ولكنّها نفس السَّبيل ...نريد التَّعمق في كلِّ شيءٍ حتّى نخسر ألف شيءٍ لأجل شيءٍ واحدٍ...

ابحثْ عن الله في قلبك...

قال السَّيِّد المسيح:

(أحبُّوا أعداءكم باركوا لاعنيكم أحسنوا إلى مبغضيكم)

وقال رسولنا الكريم صلّى الله عليه وسلّم:

(لا يؤمن أحدكم حتَّى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)

لم يكن هناك اختلافٌ كبيرٌ سوى في عقولنا، تعلم جيداً بأنَّ الإنجيل يخالف القرآن الكريم، ولكن هما طريقاً واحد للقيم الأخلاقيَّة الواحدة

ابحثْ عن خالق هذا الجمال، لأنَّه دائماً يرسل إليك آلاف الإشارات لكي تصل إليه هذه كلماتي الأخيرة، ابحثْ عنه لأنَّه سبيلك الوحيد لكي تفهم الحياة أو بالأصحّ لتفهم سرَّوجودك.

القدرقد انتصرووضع لمسته الخاصّة لينتهي كلَّ شيءٍ.

.

صدر أيضاً للكاتب أحمد زاهر حوّا سابقاً

رواية نثرات العطر الأسود بتاريخ 2020/5/26

للتَّواصل ومتابعة جميع أعمالي

انستغرام

ahmad zaher hawa

أحمد زاهر حوَّا

فيس بوك

ahmad hawa

يوتيوب

Ahmad hawa jawad